من أدب السفر والرحلات في المأثور الادبي
رحلة ابن بطوطة

الدكتور نوري حمودي القيسي
رئيس معهد البحوث والدراسات العربية
كلية الآداب - جامعة بغداد

لم يعرف الانسان الجمود أو التوقف عبر مسيرة حياته الطويلة وانما كانت حياته سلسلة متصلة من الحركة والبحث ، سعيا من أجل القوت وبحثا عن الاستقرار ، واشباعا لرغباته المتنوعة ، وتأكيدا لطبيعة حياته التي بقيت تفرض عليه هذه الصفة المتميزة .

ومن هنا كانت رحلته القديمة ،وحركته المستمرة، واندفاعه قائما ، وقد حفل تاريخ البشرية الطويل باصناف تلك الرحلات ودونت بعض الاخبار القديمة أخبارها العجيبة ، ووصل الينا بعضها وما يزال البعض الآخر رهن الحصر أو حبيس الكتب المطموسة ، أو الآثار التي لم تكتشف وهي في أغلبها تمثل نزعة الانسان الى البحث ، واندفاعه من أجل الانتقال ورغبته في الوقوف على المسائل التي سمع أخبارها ، أو تصور أشكالها ، أو سردت له الأساطير واقعها ، ومن المعروف أن هذا الانسان في مراحله الاولى كان يختزن الاحداث التي تلاقيه ، فيرويها شفاها ، ويحدد خصائصها ، ويذكر غريبها ثم تنقل هذه الاخبار عبر روايات شفهية ، تضيف اليها اخبارا ، وتختزل منها أحداثا وقد تبالغ في أقسام اخرى بحيث تجعلها بعيدة عن صورتها الحقيقية . . . ثم بدأ هذا الانسان يرسم تلك الاحداث مؤكدا الاجزاء الكبيرة منها أو القوية فيها ، أو البارزة وهو في كل لوحة من هذه اللوحات يحدد ظاهرة ، ويحدد اسلوبا ، ويرسم تصورا ، واخيرا بدأ التدوين يأخذ أشكاله من أجل وضع هذه الحقائق موضع الاهتمام لينتفع بها الآخرون ، ويستهدي بأوصافها المتابعون ، والانسان في كل هذه الرحلات يروي المعارف النافعة ، والعلوم التي يقف عليها ، والوسائل التي يستخدمها ، والأهوال التي تصادفه والمصاعب التي تجابهه الى جانب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والحضارية والعمرانية للأمم التي يمر بها والشعوب التي يتصل بها ، وطبائع البشر ، وعاداتهم وتقاليدهم والانماط التي

يتميزون بها ، والمعالم الاثرية التي يقفون عليها ، وقد أصبحت أمثال هذه الرحلات مصادر تاريخية مهمة ، ومراجع حضارية لها قيمتها الكبيرة في مجال البحث . أما الاخبار المتناثرة عن أحوال الشعوب وعلاقاتهم وطبيعة العلاقات التي تربط بينهم ، والوسائل التي يستخدمونها في حياتهم ، وطريقة التعامل ، فتمثل الصورة الاجتماعية التي يمكن من خلالها دراسة واقع الشعوب وما كانت تمارسه من تقاليد ، وتؤمن به من طقوس ، وفي كتب الرحلات المشهورة تكشف عن هذه الجوانب وتوضح الصورة الحقيقية التي رسمها الرحالون وهم يطوفون الارض ، ويجوبون الآفاق إن أدب الرحلات يمثل صورة طريفة من صور الادب الواضح والواقعي . لانه كان يباشر الاشكال مباشرة قريبة ، ويتحدث عنها بطريقة واقعية ، ويصف الأحوال وصفا دقيقا ، وهو بعد ذلك اجتماعي وانساني ، لأن الرحالين كانوا يعبرون من خلاله عن مشاعرهم الانسانية ، ويرسمون طموحهم ويتفاعلون وهم يتحدثون تفاعلا وجدانيا بعبارة رقيقة ، واحساس داخلي صادق ، وتشبيه حي معقول ، يتناول الواقع ، ويعبر به عن الصورة المنظورة ، ومن هنا كان هذا اللون من الأدب يحكي التجربة الحية ويمثل التطلع السليم ، ويشكل الاسلوب الناضج الذي ينسجم مع طبيعة الغرض الذي يريده الرحال أو السائح .

لقد أكد الانسان رغبته في الانتقال وحب الاستطلاع ، وميله الى الاندفاع وراء كل حالة مجهولة في كثير من تصرفاته ، وقد برزت هذه الرغبة وحب الاستطلاع والميل وسعيه الحثيث من أجل التنقل ، وحبه الغامر للرحلة ـ مهما كانت ـ وتشوقه الى السفر بأية وسيلة ، ومن الطبيعي أن يتجه في ذلك الى البلدان المجاورة والاقطار المتاخمة، أو الاقطار القريبة ، يرود مناطقها ، ويكشف أحوالها ، ويتطلع الى شعوبها ، ويتعامل مع انسانها ، وهو في كل حالة يشبع رغبة ملحة ، ويحقق أمنية حالمة ، ويسعى من أجل آمال راودت فكره ، وجالت في ذهنه ، وقد استطاع هذا الانسان ان يؤكد وجوده ، ويثبت آماله في كل عهد ، وفي كل زمن ، فقد دلت آثاره التي تركها في النقوش البارزة ، والروايات المنقولة ، والكتابات التي وصلت الينا على قدرته الفائقة في الانتقال ، ووصوله الى المناطق النائية ولعل الرحلات البحرية التي اهتدت الى العوالم المجهولة واكتشفت الاصقاع البعيدة وعرفت الارض الجديدة والرحلات البرية التي وثقت علاقات الأمم وحررت شعوب الارض ، ونقلت حضارات الأمم المتقدمة ، تعد الدليل الواضح على الرغبة التي كانت تساور الانسان من أجل الاهتداء الى تلك العوالم فكانت ملحمة كلكامش أول رحلة عرفها الانسان بحثا عن الخلود واهتداء الى المثل الخيرة التي يفكر الانسان فيها من

أجل صنع العمل الانساني ، فكان السور العظيم الذي بناه حول مدينة (ارك) واخيرا ادرك كلكامش بعد رحلته الطويلة ، وسفرته التي صادف فيها المتاعب ، ولاقى الاهوال وفقد أعز الاصحاب ان العمل الخالد هو الذي يخلد الانسان ، وان الانسان لابد ان يقدم العطاء الخير . . .

وعرفنا أن المصريين في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد حققوا رحلات الى ساحل الصومال ووصلوا الى مناطق نائية اسسوا من خلالها صلات وثيقة وجاء الفينيقيون الذين عرفوا في رحلاتهم البحرية ، ومهارة ملاحيهم الذين خاضوا عباب البحار ووصلوا الى مرافي بحر الروم والشواطىء الغربية لاوربا ، ويمكن اعتبار رحلة (حنون القرطاجي) حول القارة الافريقية ورحلة (عملقون) الى سواحل اوبا الغربية من الرحلات الشهيرة في ذلك العصر ، ولكن اخبار هاتين الرحلتين بقيت غير معروفة الا من خلال اخبار قصيرة واحداث متناثرة سجلتها المصادر اليونانية والرومانية .

وتظل رحلة هوميروس التي ركب فيها البحر ونظم اخبارها ملحمة خالدة وقف فيها على البلدان التي مر عليها والجبال التي صادفته والوديان الخضر التي زارها والأنهار التي عبرها والناس الذين صادفهم ، تظل هذه الرحلة نموذجا من نماذج قدرة الانسان على المجابهة وحبه لاكتشاف الاماكن المجهولة ، ورغبته في تحقيق الامال التي تدور في رأسه وبقيت ملحمته الرائعة صورة من صور الادب العالمي الرائع ، الذي عبر عن الاحساس الانساني الذي لون الملحمة بالوان زاهية ، وترك فوق احداثها بصمات الوجدان التي تعجز عن صنعه اقوى العوامل .

أما هيرودوت الذي انتفع من مشاهداته ، واستخدم تجربته ووقف على الاحداث المراقبة والتطلع ، فقد ترك لنا الأحداث رحلة طويلة شملت اقطارا كثيرة ، ومرت عبر مجاهل غير معروفة ، سجل اخبارها ، ودون غريبها ، وروى وقائع أيامها ، وقد حل تارخه الكبير بانباء هذه الرحلة الغريبة وثبت انطباعاته وهو يطوف بلاد مصر وبلاد الفرس وحدد أماكن لم تعرف من قبل وطبائع شعوب لم تكتشف .

وأعقب هيرودوت الرحالة الرومانيون الذين طافوا الارض وانتشروا في الآفاق يسعون الى تحقيق غاياتهم ، ويفتشون عن الأرض الجديدة ، وهي رحلات كثيرة ، وثقت رحلاتهم ، وشدت بينهم وبين العالم المعروف آنذاك وقد كانت السفن والخيول هي الوسائل التي استخدمها الرحالة وكانت عنايتهم بها كبيرة واهتمامهم بشؤونها يفوق كل اهتمام ، لانها وسيلتهم في الانتقال واداتهم في اكتشافهم والعنصر الفعال في تحديد

الموقف ، لان الحرب كانت تشكل وسيلة مهمة من وسائل الرحلة ، وبسببها تتحقق الأهداف المرجوة من هذه الرحلات .

ولم تكد بوادر القرن الثامن الميلادي تبدأ حتى كانت جحافل التحرير العربية ترفع لواء التحرر والعدالة فوق ربوع الارض الواسعة التي تمتد من بلاد ما وراء النهر حتى بلاد الاندلس وقد اتيح لهم ان يتقدموا في مجال الرحلات والاكتشافات فملكوا ناصية العلم والمعرفة وحققوا للامم القديمة تراثها الموروث . وتقدمت على يدهم أصول العلوم .

ان حديث الرحلة عند العرب يشكل حديثا واسعا لانه يرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب العلمي والتأكيد عليه اولا وبالتحرير الذي كانت تدعو اليه الامة ثانيا ، وبطبيعة الاحساس العربي الذي كان يسعى الى المعرفة ، ويدعو الى الاستزادة منها ثالثا ، وبأسباب اقتصادية تتصل بالتجارة رابعا ، وقد عرفت اليمن منذ العصور القديمة حركة هذه الرحلات ، وقد استخدمت السفن في توسيعها ومن الطبيعي ان يصاحب ذلك اهتمام باستيراد الخشب الذي تصنع منه السفن من أجل استيراد الذهب والنحاس والاحجار الكريمة والسلع الاخرى التي تستخدم في المناسبات والطقوس ، وقد وصلت أساليب التجارة مرحلة متقدمة في طريقة التعامل واستيراد السلع وتبادل البضائع وكتابة العقود التجارية ، ولم تعدم المدن التجارية من هذه التجارة التي امتدت الى بلاد الشام فكانت رحلتان للصيف والشتاء الى سورية وفلسطين والى جنوبي جزيرة العرب . وهنا يقف الشعر العربي شامخا ليرسم أبعاد هذه الرحلات ويقف النابغة الذبياني والاعشى وحسان بن ثابت وعدي بن زيد العبادي وكل الشعراء الذين كانوا يجوبون الارض العربية طلبا للكلأ وتوثيقا لأواصر المودة ، ووقوفا على الاسباب الحقيقية التي تشد اسباب الحياة .

وكانت الناقة التي اضفى عليها الشعراء أسباب القوة والسرعة تمثل الوسيلة التي تحقق لهم هذه المطامح وتدفعهم الى الوصول الى من يبغون اليه الوصول ، ومن هنا كانت الناقة تمثل الحيوان الذي استحوذ على أكبر قدر من الشعر العربي، ونالت أوصافها وخصائصها وقوتها وجريها وسرعتها وصبرها على المشاق ، وجرأتها في اختراق المفاوز اعجاب الشعراء حتى عرفوا بوصفها ، وشهروا بالحديث عنها ، وقد استدقوا في وصف اعضائها وتباروا في امتداح سرعتها وافتخروا في تقدير قوتها . . . واذا حاولنا الوقوف عند التشبيهات التي قيلت بشأنها لوجدنا عشرات الأوصاف والتشبيهات فقد وصفوا اخفافها وذنبها وأوبارها وسمنها وسيرها وفخامتها وعظم بطونها وقوائمها تشبيها بحمار الوحش

بقوتها والنعامة بسرعتها وبالشجرة لضخامتها وبالقصر المشيد والبنيان الضخم والصخرة والقطعة من الجبل وكيف تشق الليل بعنقها الطويل وتخترق المفاوز والاكام فتثير الحصى والقطا ، لا تهز لها الرحلة ، وقد افردوا للرحلة اجزاء من قصائدهم حددوا من خلالها وقتها وكثيرا ما كانوا يقرنون تفريج الهم بالرحلة والاسفار لانهم يعتبرون الرحلة حياة جديدة ، ومواجهة حية لمصير مجهول وسط عالم لا يرحم ، وفي ظل ظروف لا تجبر ، وقد تركت هذه الأوصاف في أدبنا العربي ملامح واضحة ، وشغلت مساحات كبيرة لم تظهر في ادب أمة غير أمتنا .

ولم تجد لها وضوحا مثل هذا الوضوح ، كما افردت كتب الحماسة أبواباً للسير والنعاس كما فعل ابو تمام في حماسته ، وتابعه في ذلك من تابعه ، وقد ترك لنا الاعشى (الشاعر الجاهلي) قصائد كثيرة وقف فيها عند الناقة وقوفا لا يمكن الحديث عنه في هذه العجالة ، وهو في كل أوصافه وأحاديثه كان يعني الرحلة الطويلة التي جعلها هدفا من أهداف حياته وغاية من غايات شعره، فقد رحل الاعشى الى آل جفنة ملوك الشام، والى المناذرة في العراق ، والى قيس بن معد يكرب ، وسلامة ذي قائش في اليمن ، والى السيد والعاقب في نجران ومدح هوذة بن علي الحنفي في اليمامة ، ووصلته هذه الرحلات بأسباب الحضارة ، كما أتاحت له أسفاره الكثيرة ، وتنقله بين هذه المناطق ، واطلاعه على هذه البيئات ، ثقافة تاريخية واضحة ، تخللت شعره ، وانتفع منها وهو يذكر ممدوحيه ، فكانت أخبار طسم وجديس ، وعاد وثمود ، وأخبار ملوك الروم والفرس واليمن واضحة في شعره ، متميزة في اخباره التي ذكرها ، أما ثقافته الدينية التي وقف عليها في رحلاته فكانت نموذجا آخر من نماذج التأثير الذي أكسبه ، ولابد أن يعرض الشاعر وهو يتنقل في عالمه هذا الى وسيلته التي اعتمدها وأداته التي استخدمها شأنه في ذلك شأن الشعراء الجاهليين الذين وجدوا في الناقة اليفا يبدد الهموم ، ومنفذا تتسرب منه الاحزان . فكانت ـ قبل السفر في أشعارهم ـ قوية ضخمة ضاعف صاحبها عنايته بها ، أما في وقت الراحة فهي صبور نشيطة في وقت اشتداد الحر ، تصل الليل بالنهار ولا تعرف للتعب مكانا ، ولا تحس في الجهد على الرغم من مشاق الطريق ووعورة المفاوز ، حتى اذا انتهت الرحلة اجهدها السير ، وأضعفها التعب فبان ضمورها ولابد ان يجد الشاعر صورة يشبهها بها ، لتظهر قوتها ، وتبدو سرعتها فكان تشبيهها بالحمر الوحشية ، أو بالثور الوحشي ، وهنا يسرف الشعراء في التصوير محاولين اضفاء كل الأشكال التي تجعل قدرة هذا الحيوان فائقة في السرعة والجرأة والقوة ، ولا أريد أن أدخل في تفاصيل هذه الالوان

التي تعد ضربا جديدا من ضروب القصة التي اغفلتها الدراسات ، وابتعدت عن دقائقها على الرغم من انها تمثل البدايات الاولية لفن القصة في الادب العربي .

ولعل الاعشى يفصل لنا جانبا من رحلاته الطويلة وهو يصف الصحراء المقفرة العمياء الموحشة التي يمد فيها بصره ليقدر أمیالها ، فوق ناقة ضخمة سلسة القياد تنطلق مسرعة وقت الهاجرة ، حيث تنكمش الظلال تحت أرجل المطي . فكأن هرا قد علق برحلها وهي هوجاء تعتسف الطريق اعتسافا فتضطرب السيور التي تشد الرحل الى أرساغها ، تاركة وراءها اخفافها مطبوعة على الرمال يقول[1]:

بهماء موحشة رفعت لعرضها
طرقي لاقدر بينها أمیالها
بجلالة سرح كأن يغرزها
هرّاً اذا انتعل المطي ظلالها
عسفا وارقال الهجير ترى لها
خدماً تساقط بالطريق نعالها

وفي أبيات أخرى يؤكد المعنى فيقول[2]:

وبيداء يلعب فيها السرا
ب لا يهتدي القوم فيها مسيرا
قطعت اذا سمع السامعون
للجندب الجون فيها صريرا
بناجية كأتان الثميل
توقي السرى بعد أين عسيرا
جمالية تغتلي بالرداف
اذا كذب الآثمات الهجيرا

أما طرفة بن العبد فقصته مع الناقة معروفة ، وأبياته في وصفها مشهورة فالخدوج سفن عظيمة ، يجري بها الملاح على اهتداء واستواء مرة يعدل بها فيميلها عن سنن

---

(١) الاعشى . الديوان ـ ٢٧ تحقيق محمد محمد حسين .
(٢) الاعشى . الديوان ـ ٩٧ .

الاستواء حيث يقول[1]:

كان حدوج المالكية غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد

عدولية أومن سفين ابن يامن
يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم الترب المفايل باليد

ان هذه الصورة تمثل الاهتمام الكبير الذي شغلته الرحلة في هذا العصر وان الابيات والقصائد التي قيلت بشأنها تشكل الصورة الحقيقية التي عبر من خلالها الرحالة العرب وهم يجوبون الأرض ، وينتقلون من مكان الى اخر ، وقد مهدت هذه الرحلات لرحلات متتالية وجماعية في العصر الاسلامي بعد ان اتسعت افاق المعرفة وتنوعت احتياجات الامة . وفتحت أبوابها مشرعة لنشر رسالتها الخالدة وتحرير الشعوب التي وقعت تحت نير الامبراطوريات الحاكمة . . .

فالرحلة الأولى كانت رحلة العلم والمعرفة ، ورحلة الانتقال الى الأرض الواسعة لنشر الدعوة والتمهيد لحركة الاصلاح الاجتماعي التي بشرت بها رسالة الاسلام وحملها الدعاة الأوائل ، وآمنت بها مواكب العلماء وهي ترافق الفاتحين ، وسجلت لنا أسفار التاريخ هذا الامتداد الواسع الذي أعطى الحركة العلمية أبعاداً جديدة ، ومنح العلماء فرصة الوقوف على أحوال الآخرين وطبائعهم ، والتعرف على أحوال البشر ممن عاشوا في أماكن نائية وأمصار بعيدة . واذا كان أدب الرحلات الذي ظل بعيداً عن متناول الدارسين قد حقق جانباً من هذه الأهداف ، وازدهرت حركته في القرن السابع والثامن الهجريين فان حالات متقدمة من حالات هذا الأدب قد سجلتها أقلام البلدانيين العرب وهم يطوفون الأرض ويجوبون البقاع محققين موضعاً من المواضع ، أو متابعين ظاهرة من الظواهر أو متعرفين على أحوال أمة من الأمم أو مرتزقين في تجارة . وهي عوامل تتشابك أحياناً لتقدم لنا رحلة طويلة ، أو تتصل لتظهر لنا صورة متناسقة يتوحد فيها الهدف الذاتي والمطمح العام ، وتقف الغاية الانسانية في جوار الايمان الديني ، ولكنها تظل عوامل ثابتة في ايراد الوجه المطلوب ، وأسباب حاسمة في حمل الانسان على أن يكون الارادة المقتدرة

(١) طرفة بن العبد ـ الديوان ـ ٣٠ .

في اكتشاف الجانب غير المنظور والوقوف على طبائع الأحوال غير المألوفة . وهنا تبدو رحلة ابن بطوطة صورة لهذا التكوين الشامل الذي قدمه هذا الرحالة العربي وهو يبدأ رحلته من (طنجة) ببلاد مراكش في سنة خمس عشرة وسبعمائة وهو في الثانية والعشرين من العمر . وهنا لابد من الاشارة الى ظاهرة السن المبكرة التي كان عليها هذا الرحالة لتكون موضع اهتمام لشبابنا المعاصر ، وهو يرى فتى من فتيان هذه الأمة يُقدم على رحلة أمدها سبع وعشرون سنة بعد أن يقطع مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر ويعبر البحر الأحمر ثم ينتقل الى فلسطين ولبنان وسورية والحجاز ميمماً شطر مكة ، قاصداً البيت الحرام ثم يغادر مكة الى العراق وبلاد ما وراء النهر والأناضول ثم يعود الى مكة ثانية ويمكث في مكة سنتين يغادرها الى اليمن ويعبر البحر الى ما يسمى في عصرنا بالقرن الافريقي أو شرق افريقيا ثم يعود ماراً بجنوب جزيرة العرب حتى الخليج العربي ليزور عمان والبحرين والأحساء ثم يعود الى مكة ليؤدي فريضة الحج الثالثة ثم يغادر مكة الى بلاد الهند ماراً بخوارزم وخراسان وتركستان وافغانستان وكابول ثم السند ليتولى القضاء في دهلي وكان مع الوفد الذي أرسل الى ملك الصين وفي طريق عودته مرّ بجزيرة سرنديب وجزائر الهند والصين ثم رجع الى بلاد العرب عن طريق سومطرة عام سبعمائه واثنين وخمسين فزار بلاد العجم والعراق وسورية وفلسطين ومنها عاد الى مكة للمرة الرابعة فأدّى فريضة الحج وكان المحور الرئيسي الذي دارت عليه الرحلة ، أو النقطة التي كانت تنطلق منها ، وأملى ابن بطوطة رحلته على ابن جزي بعد عودته

وفي صدور الامر العالي بضم اطراف ما أملاه في تصنيف يقطع مجال الكلام الذي يمكن أن يقال في تدوين الرحلة .

فقد صدر الأمر العالي له أن يضم أطراف ما أملاه الشيخ في تصنيف يكون على فوائده مشتملا ، ولنيل مقاصده مكملا متوخيا بتفتح الكلام وتهذيبه ، معتمدا ايضاحه وتقريبه ليقع الاستمتاع بتلك الطرف ويعظم الانتفاع بدرها عند تحريده عن الصدف فامتثل ما أمر به مبادرا وشرع في منهله ليكون مبعوثه الله عن توخيه الغرض منه صادرا فنقل معاني كلام الشيخ ابي عبدالله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها وربما أورد لفظة على وضعه فلم يخل بأصله ولا فرعه ، وأورد جمع ما أورده من الحكايات والأخبار ، ولم يتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار . على أنه سلك في اسناد صحاحها اقوم المسالك وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك ، وقيد المشكل من اسماء المواضع والرجال بالشكل والنقط ، ليكون انفع في

التصحيح والضبط وشرح ـ كما يقول ابن جزي ـ ما أمكنه شرحه من الاسماء العجمية و « هو مالم اجده في النص » لانها ـ كما يقول ـ تلتبس بعجمتها على الناس ، ويحظى في فك معماها معهود القياس . .

فكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة ، والمعروف أن ابن بطوطة لم يدون أخبار الرحلة وإنما استذكر احداثها وهو يمليها وفي الرحلة اشارات الى هذه الظاهرة التي تُدلل على املائها بعد عودته لانه في كثير من الاحيان كان يتوقف وهو يملي عند مدينة وصل اليها ولكنه يقول (لا أثبت الآن أسمها)[1] وفي حديثه عن قاضي ملتان وما كتب ملك الهند الى أولاده من الدنانير يقول « فلما بلغ الخبر الملك أمر أن يبعث الى اولاده عدد من آلاف الدنانير (لا أذكره الآن)[2] وعند حديثه عن بلخ وزيارته لقبور الصالحين الكثيرة قال « وزرنا بها ايضاً قبوراً كثيرة من قبور الصالحين » (لا أذكرها الآن)[3] وعند ذكره أمير ملتان قال : وكان جلوس هذا الأمير على دكان كبير عليه البسط وعلى مقربة منه القاضي ويسمى سالار (والخطيب لا أذكر اسمه) .[4] ولعلّ الاشارة التي وردت في صدور الأمر العالي لمحمد بن محمد بن جزي الكلبي بأن يضم أطراف (ما أملاه) تؤكد هذه الحقيقة التي لم يعد مجال النقاش فيها مفتوحا .

وفي حديثه عن الدقيق واللحم الذي طلب منه أن يأخذه لا يستطيع تذكر الاوزان فيقول « لأوزان لا أذكرها الآن »[5] وفي أحيان أخرى ينسى اسماء بعض البلدان التي وصل اليها فعند رحلته من تمبكتو يقول : ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه[6] وربما تكون هذه الطاهرة قد افقدتنا جزءاً من أخبار ذهب بها طول السنين وهي مسألة تستحق النظر في بعض أحداث الرحلة .

والرحلة ، تاريخ حافل ، وسجل مليء باخبار الأمم والملوك والعلماء والاولياء وزاخر بعادات المجتمعات المختلفة التي وقف عليها وعاش معها وألف حياتهم ، وتنقل بينهم ومهما قيل في ذكر ما وقف عنده أو تحدث عنه أو أشار اليه فهو حديث لا يوفي ، وايجاز لا يعطي الصورة التي حاول أن يتحدث عنها في رحلته وحديثه عن كل مصر يأخذ طابعاً

---

(١) الرحلة/ ٢٣١ .
(٢) الرحلة/ ٢٥٢ .
(٣) الرحلة/ ٢٥٤ .
(٤) الرحلة/ ٢٦٨ .
(٥) الرحلة/ ٣٣٦ .
(٦) الرحلة/ ٤٥١ .

تغلب عليه عادات أهل ذاك العصر ، فالهند لها أحاديث تختلف عن بلاد ما وراء النهر والاناضول لها أوصاف غير أوصاف الصين وسيلان فيها من الطرائف ما لم يذكره عند اشاراته الى جاوة وسومطرة . وكذلك الشأن في حديث افريقيا التي استثارت في نفسه احاديث غريبة ربما تكون معالجته عند الكلام عنها مقاربة من معالجته وهو يذكر جزر المليبار وغيرها من جزر المحيط الهندي . واذا كانت غلبه اسم المصنف قد أغفلت الاشارة الى الاسم الحقيقي للكتاب (تحفة النظّار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » فان الرحلة ظلت طريفة بمشاهدات المؤلف وغنية بتجربته التي بقيت بعض أخبارها موضع شك ، وبقيت أخبارها لدى بعض الناس تتراوح بين الصدق والكذب . على أن الرحلة كانت موضع اعجاب الثقات من المستشرقين الذين وجدوا فيها طريقة وعادات غريبه واشارات الى تقاليد لم يجدوا أنفسهم قادرين على التحقق منها ولابد أن تكون مثل هذه الرحلة موضع نقد منهم كما هو معروف ، ولكن نقدهم لها وموقفهم منها لم يمنعهم من الاخذ عنها والنقل منها ونشر بعض فصولها أو طبعها .

والذين كتبوا عن ابن بطوطة ورحلته كثيرون ، والذين استهوتهم غرائبها ، أكثر ، ويكاد يكون عامل الاندهاش والمغامرة وطريقة التناول وسلاسة العرض من العوامل المثيرة التي شدت الناس إلى هذا الكتاب ووحدتهم للتأثر به والتعبير عن احساسهم سلبا أو ايجابا بما وقف عليه أو تحدث عنه أو تأثر به ولكنها تجمع على أن الرحلة كانت مثيرة لما أثارته من تساؤلات عن عوالم غريبة ادركها كثير من الباحثين في عصره ومن الطبيعي ان تثير هذه التساؤلات الاهتمام الذي يتناسب مع طول الرحلة والمخاطر التي تعرض اليها صاحبها والاخبار التي ذكرها والملوك والسلاطين والامراء ، الذين اغدقوا عليه من الهدايا ما يحسد عليه ، ومن العطايا ما يُكثر حساده ، الى جانب الاهتمام الذي حظي به من سلطان فاس حيث لقي منه العطف والرعاية ، فأثار في نفسه المديح المتناهي والثناء المستحق فرفعه الى درجة تفوق سائر الحكام الذين قابلهم ، وربما أثارت هذه الرعاية حسد الآخرين فعبروا عنه بما يؤكد مناهضة هؤلاء لهذا الرجل الذي اخذت أحاديثه بمجامع القلوب ، وطبقت شهرته آفاق المغرب ، واستأثرت منزلته بما جعله موضع رعاية وكرم . وقد تأججت بواعث الغيرة ، واستعرت نوازع الحقد فكانت البوادر الاولى تنطلق من حديث ابن جزي الذي أملى الرحلة فيقول « ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله بالفاظه موفية للمقاصد التي قصدها ، موضحة للمناحي التي اعتمدها . ثم يقول : ولم اتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار . . .

وكان ابن خلدون أعلى صوتا من ابن جزي وهو يقول عبارته بعد أن يوجز صورة ابن بطوطة وهو يرحل ـ كما يقول ـ منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق « فتناجى الناس بتكذيبه » وهي اشارة الى أن أكثر من صوت بدأ يرتفع بالتكذيب ، وأكثر من قائل يوجه سهامه الى التشكيك بأحداث الرحلة وهو أمر طبيعي والناس يستمعون لأخبار لم يسمعوا مثلها ، ويحدثون بمسائل لم يجدوا لها نظيرا في بلادهم ، وتروي لهم أخبار أقوام بقيت حياتهم معزولة وعاداتهم لا تتصل من قريب أو بعيد بما ألفوه من عادات فكانت مجالا للتقول وموضعا للاستزادة ومبعثا لمضاعفة الشكوك ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون ثانية بعبارته . وهو يتحدث عن ملاقاته لوزير السلطان وفاوضه بشأن ابن بطوطة « وأريته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض الناس في تكذيبه » . . وتظل هذه البدايات مادة أساسية لاولئك الذين جاءوا بعد ابن خلدون فوجدوا في أحاديثه غرابة ، وفي أقواله خروجاً على المألوف ولكن هذه المحاولات كانت تجد من يبرأ الرحالة من هذا الكذب ويدفع عنه تهمة الخطأ أو الوهم أو الكذب . ان املاء الرحلة وبعد أكثر من عشرين سنة لا يمنع من بعض الأوهام التي وقع فيها ابن بطوطة فهو يذكر ان سقوط بغداد كان سنة ستمائة وأربع وخمسين وهو ست وخمسون وستمائة كما هو معروف ولكن هذا لا يعني انه يكذب أو يحملنا هذا الوهم الى التشكيك في الرحلة ، لأن جزئيات الاحداث المروية واختلاف التناول وموسوعية المعرفة وتنوع الموضوعات وعدم تدوين اخبار الرحلة تسبب مثل هذا الخلط أو النسيان .

وعلى الرغم من الاعجاب الكبير الذي نالته الرحلة والتصديق الذي أكد صحة كثير من أخبارها الا أن هذه الأصوات الايجابية بقيت غير واضحة وظلت اصداؤها تتلاشى في خضم الأخبار القليلة التي شككت بالرحلة واثارت بشأن صحتها من الادعاءات ما دفع الكثيرين الى ترديد هذه الشكوك . .[1]

واشارات اخرى تؤكد طبيعة الرحلة التي يبدو أنه لم يفكر في مراحله الأولى أن يجعلها بهذه الصورة ، ولأسباب أخرى تتعلق بمخاطر الطريق وتعرضه للنهب والسلب وصعوبة حمل وسائل الكتابة وهو يقطع هذه المسافات وينتقل من مكان إلى آخر ومن بر الى بحر ومن جزيرة الى ساحل ويستعمل السفن والجمال والخيول . كل هذه الأثبات تؤكد أن أحداث الرحلة ظلت عالقة في ذهنه ، وهي اشارات اخرى الى قوة ذاكرته وقدرته على

---

(١) الرحلة/ ١٧ .

الاحتفاظ بهذا الخزين من الأحداث والاسماء والوقائع والمساحات ودقائق المسائل وأوصاف المدن وطول المسافات ووصف المرابع والديار والاثار . وهي قدرة اضافية تعطي هذا الرحالة المدني سمة التجاوز وتضعه في مكانة مرموقة من أماكن العلماء القلائل الذين كتب لهم أن يقدموا مثل هذا العمل الفريد .

وقد وجدت الرحلة اهتماما متقدما فقد طُبعت طبعتها الأولى في مجلدين سنة ١٢٨٨ وطبعت ثانية سنة ١٣٢٢ ونشرت الرحلة دار صادر سنة ١٩٦٢ وطبعها المرحوم قاسم الرجب عن طبعة باريس في خمسة مجلدات ، ومن الطبيعي أن يهتم بالرحلة المستشرقون وهم يجدون في أخبارها مادة طريفة ، وفي مغامراتها اخبارا لاقوام وشعوب يهمهم معرفة احوالها ويعود هذا الاهتمام الى عام ١٧٨١ حيث طبع القسم الخاص بأفريقيا والجزائر وبلاد العجم والتتار . ثم ترجم القس (صموئيل لي) قسما كبيرا منها سنة ١٨٢٩ وترجم قسم من الرحلة ونشر بالفرنسية سنة ١٨٤٣ ـ ١٨٤٧ وترجمت الى الألمانية سنة ١٩١٢ في هامبورغ . ثم ترجمت الى اللغة التركية ، ونشرت سنة ١٩١٢ في هامبورج . ثم ترجمت الى اللغة التركية ونشرت الترجمة الايطالية سنة ١٩٦٢ ولخص المستشرق جب الرحلة ونشره سنة ١٩٦٢ وهي اهتمامات تؤكد السمعة الكبيرة التي حظيت بها هذه الرحلة ، والأخبار التي وجدت صداها في الثقافة الاوربية خلال القرن التاسع عشر . وبقيت ملحقاتها أو فصول منها تكتب في العربية وبقي اسم صاحبها يتردد في تأليف الرواد والرحالة والحضارة والتاريخ . وفي كل حقل من هذه الحقول يعالج جانب وتدرس حالة ويتناول موضوع . وفي سلسلة اقرأ اصدر الدكتور ابراهيم احمد العدوي « ابن بطوطة في العالم الاسلامي » سنة ١٩٥٤ ، وتبقى اصداء الرحلة تتردد في كتاب الرحلات للدكتور شوقي ضيف والرحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن وحديث السندباد القديم للدكتور حسين فوزي وفصل الحديث عن طبعات الكتاب ومختصراته ومخطوطاته الاستاذ محمود الشرقاوي في كتابه رحلة مع ابن بطوطه من طنجة الى الصين واصداره سنة ١٩٦٨ .[١]

(١) تاريخ الادب العربي الجغرافي ـ كراتشوفسكي : ترجمة الاستاذ صلاح الدين عثمان هاشم/ ٤٢١ .

من الطبيعي أن تظل العوامل الحقيقية التي دفعت ابن بطوطة إلى الرحلة هي زيارة الديار المقدسة وأداء فريضة الحج ، وإذا كان هذا الدافع قد ظل عنصراً اساسياً من عناصر الاندفاع فان حب التجوال والوقوف على احوال البلاد ودراستها ومعرفة اوضاع سكانها والخروج على دائرة المعروف من الاحوال إلى دائرة المجهول تظل هي الغاية المتوخاة التي دارت في ذهن الفتى العربي وهو يُعد نفسه لانجاز رحلة لم يعرف مداها حين عزم على القيام بها ، ولا ضمن مدتها حين قرر التوجه إلى مكة ، ولكنه حزم للأمر وهيأ نفسه لما يمكن أن يصادفه من متاعب ، ويتعرض له من اهوال وأن رحلة ابن بطولة التي اخذت حجمها في تاريخ الرحلات وامتدت فترتها لتستغرق اكثر من ربع قرن كانت امتدادا لتاريخ الرحالة العرب الذين جابوا الآفاق ودرسوا أحوال الممالك ، وقطعوا للوصول إليها اشق المسالك . كأحمد بن اسحاق المتوفي في حدود ٢٩٢ للهجرة كما تذهب بعض الروايات كان كثير الاسفار ورحل إلى المغرب واقام في ارمينية ودخل الهند وزار الوطن العربي وأحمد بن سهل البلخي المتوفي في حدود سنة ٣٢٢ ساح سياحة عظيمة ونزل في عدة ممالك ودون تجربته . ومحمد بن حوقل المتوفى سنة ٣٨٠ رحل من بغداد سنة ٣٣١ ودخل بلاد المغرب وصقلية وجاب بلاد الاندلس وألف كتاب المسالك والممالك . إن رحلات هؤلاء العلماء قد تختلف في اسبابها عن رحلة ابن بطوطة وقد تلتقي في بعض غاياتها ولكن السبب الرئيسي الذي دفع ابن بطوطة هو العامل الديني وربما كان ولعه بالترحل والتنقل وما اشرنا اليه من عوامل أخرى تختفي وراء رغبته التي حقق بها شهرة لم تكتب لغيره . وقبل الوقوف عند رحلة ابن بطوطة لابد لنا من الاشارة إلى رحلة ابن جبير المتوفى في حدود سنة ٦١٤ المولود في بلنسية سنة ٥٤٠ وولع بالترحل والتنقل فزار المشرق ثلاث مرات وكانت احداها سنة ٥٧٨ ـ ٥٨١ وهي التي ألف فيها كتابه رحلة ابن جبير ولم يكتب له انجاز رحلته الثالثة حيث توفاه الله بالاسكندرية . وتبقى رحلات التجار من العرب والمسلمين وغير المسلمين تجتاز حدود الممالك ، وتقطع المسافات الطويلة لتحقق رغبة من عرض تجارة وابتغاء رزق وتحقيق رغبة ودراسة حالة والوصول الى مطمح ، وقد فتحت الرحلات الطريق ومنذ عصور قديمة لاستعمار الارض واستغلال الثروات والسيطرة على مراكز التجارة والتحكم في مصير الشعوب . . وتبقى كتب البلدانيين العرب اصولا اساسية في هذا الميدان ، ومنابع علمية لمعرفة احوال الاقاليم وعادات الشعوب وتاريخ الممالك .

وإذا قيض لكثير من الباحثين أن يتحدثوا عن الرحلة من خلال مواقف او دراسات

أو اهتمامات فإن قراءتي للرحلة كانت قراءة متعة وتقصٍ ، واستشفاف لما يمكن أن يقف عليه قاريء وهو يتابع رحلة شاقة ، ويساير رحالة له وجهة نظر ثابتةويرى الاشياء من خلال صورته ، ويقيس الوقائع بموازين معرفته ، فاستهوتني الرحلة حتى كنت اقرأ بعض فصولها اكثر من مرة وانقل اخبارها إلى بعض اصحابي ممن التقي بهم لطرافة أخبار ها وغرابة احداثها وسهولة سردها ، واختيارها الألفاظ المعبرة والابيات الشعرية المناسبة والحكايات المثيرة والكرامات الدينية* . وقد دفعني الاعجاب بالرحلة إلى أن ادون بعض خواطري واجمع ما يمكن من اخبارها لاعطي القاري صورة عن هذا العمل الذي لايهم المؤرخ أو الجغرافي أو الاديب وانما هو مادة لكل باحث وموسوعة لكل عالم يستطيع ان يختار منها مايريد ويستشهد ببعضها متى شاء ويروي اخبارها اذا وجد مناسبة ولعل أوصاف المدن التي مرّ بها أو وقف عندها أو فصل الحديث عنها تمثل الصورة الكبيرة التي استغرقت من الفصول مساحات واسعة . ومن الحديث اوقاتاً كثيرة ومن الأخبار روايات وفيرة فهو يصف اكثر من مائة مدينة في رحلته . وتتراوح أوصافه بين الأختزال الذي يصل الى سطور والتطويل الذي يتجاوز الثلاثين صفحة كما في حديثه عن مكة أو ضعف عدد هذه الصفحات كما في حديثه عن مدينة دهلي .

ومن الطبيعي أن يكون تفصيل وصف المدن عند بطوطة ينطلق من اعتبارات مخصوصة ، وأهمية متميزة يرى الحديث عنها واجبا والوقوف عند تفاصيلها اساسا من أسس رحلته ، وهي أوصاف تعتمد الملاحظة المباشرة والوصف المنظور والأثر الماثل والعمارة الشاخصة وكثيراً ماكان المؤلف يقدم الصورة المرئية وقد اعتراها الخراب ، أو امتدت إليها يد الاهمال والنسيان ، ويقدم لكل اثر توطئة تاريخية تمهد السبيل للقاريء ليعرف اهميته ومكانته وخصائصه ومن بناه وكيف تم بناؤه وما صاحب البناء من اقوال واساطير وزينته ومساحاته ويستهدف في الوصف حتى يصل إلى التفاصيل الدقيقة لما هو موجود فيه من قناديل واشكالها وعدد السواري والقباب إذا كان مسجدا وتتجلى هذه الصورة عند حديثه عن مدينة (الاسكندرية) و (مصر كما يسميها وهي القاهرة) و (القدس) و (دمشق) و (المدينة المنورة) و (مكة المعظمة) و (بغداد) و (القسطنطينية) و (دهلي) وهي اوصاف تقدم للباحثين نماذج من طرز العمارة التي كانت عليها هذه المدن في عصر المؤلف فاذا تحدث عن الاسكندرية عرض لذكر ابوابها ومرساها والمنار وعمود السواري ووقف عند « ذكر بعض علمائها مثل ابي الحسن

الشاذلي[1] .

وإذا وصف مصر عرض لذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا والمزارات والنيل والاهرام والعلماء والاعيان ووقف عند يوم المحمل باعتباره يوما مشهوداً وركوب القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب واعلام الفقهاء وارباب الدولة مستقبلين المحمل الذي يخرج من باب القلعة دار الملك الناصر على جمل وأمامه الامير المعين للحج في تلك السنة واهتمام المؤلف بهذا الحديث يمثل الاستجابة النفسية التي يحس معها بالتعاطف ويجد نفسه متعاطفا مع الحديث عنه لأنه استكمال لرحلته التي قرر القيام بها[2] .

اما بيت المقدس فهو ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرجه إلى السماء وقد ابتدأ بذكر المسجد الذي قال عنه : انه ليس على وجه الأرض مسجد اكبر منه ،[3] وعرض للحديث عن قبة الصخرة التي عدها من أعجب المباني واتقنها واغربها شكلا ، ثم تحدث عن بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف وعرج على ذكر بعض فضلاء القدس . وعندما وصل إلى دمشق يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين وسبعمائة وقال فيها ما تستحق من اوصاف ثم نقل وصفاً لها قاله ابو الحسين بن جبير[4] وهي اشارة تؤكد وقوفه على ما كتبه السابقون من الرحالة ، وعلى عادته في ذكر هذه المدن فقد قدم لها بالاشعار التي قيلت فيها وهي من المختار لأن الشعراء قالوا في وصف محاسنها مالا يحصر كثرة . ولا ينسى وهو في غمرة هذه الاشعار ان يقول واهل دمشق لايعملون يوم السبت عملا إنما يخرجون إلى المتنزهات وشطوط الانهار وروحات الاشجار بين البساتين النظرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم إلى الليل[5] ثم يباشر الحديث بذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني امية فيقول عنه : وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالا ، واتقنها صناعة ، وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ، ولايعلم له نظير ولايوجد له شبيه[6] ويقدم ابن بطوطة وصفا دقيقا للمسجد يكشف فيه عن الابعاد والاطوال والخطوات والأرجل الجصية والمرصعة بالرخام وقبة الرصاص والخزانة الكبيرة التي فيها المصحف الكريم الذي وجهه امير المؤمنين عثمان بن

---

(١) الرحلة من ٢١ ـ ٢٦
(٢) الرحلة/ ٣٨
(٣) الرحلة/ ٤٥
(٤) الرحلة/ ٦١
(٥) الرحلة/ ٦٣
(٦) الرحلة/ ٦٣

عفان رضي الله عنه ومحراب الصحابة ويذكر اهل التاريخ أنه أول محراب وضع في الاسلام[1] ويفكر ويقف عند سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد[2] الذي يقع في الرحبة المتصلة بالباب الاول . ثم يذكر ائمة هذا المسجد وهم ثلاثة عشر إماما وحلقات التدريس في فنون العلم وجماعات المعلمين الذين يدرسون القرآن وكل واحد منهم يستند إلى سارية من سواري المسجد يلقنون الصبيان ويقرئونهم ، ويذكر أن معلم الخط غير معلم القرآن ، لأن معلم الخط يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب وبذلك جاد خطه ، لأن المعلم للخط لايعلم غيره[3] .

ومن طرائف الرحلة أو أهميتها ما يقف عليه ابن بطوطة في سياق حديثه فقد شاهد وهو في دمشق أيام الطاعون الاعظم في اواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع واربعين وسبعمائة حين نادى المنادي بصوم الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس وفي يوم الجمعة خفف الله تعالى عنهم بعدما انتهى عدد الموتى إلى الفين في اليوم الواحد وقد انتهى عددهم في القاهرة ومصر إلى اربعة وعشرين ألفا في اليوم الواحد .[4]

وإذا كان وصف مدينة دمشق قد استغرق من الرحلة عددا من الصفحات فإن (مدينة الرسول) صلى الله عليه وسلم قد اخذت حجمها المناسب في امتداد هذه الرحلة ولابد أن يكون المسجد النبوي وروضته الشريفة أول مايقف عليه بعد أن يقدم له وصفا هندسيا متكاملا بما يحف به من شوارع مبلطة بالحجر المنحوت وما يضمه من روضة مقدسة عجيبة مدورة بالرخام البديع النحت ، الرائق النعت وما يستقبلك في صفحتها القبلية . ثم يقدم تاريخا لابتداء بناء المسجد الكريم الذي يضيف إلى ما قيل عنه مصدرا آخر اعتمد الصورة المنظورة والوصف الدقيق والنقل الحقيقي المحسوس ، وللمنبر في حديثه امتداد يؤدي إلى امام المسجد في عهد دخوله وخدامه والمؤذنين والمجاورين وامير المدينة والمشاهد الكريمة بخارجها ثم يتحول وصف الطريق إلى مكة[5] ليصف مدخلها وصفا يكاد السامع يراها فهي مدينة متصلة البنيان ، مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها ، وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ ، والاخشبان من جبالها هما جبل ابي قيس وهو في جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان ويستمر في سرد مناسكها وابوابها ثم يصل إلى وصف المسجد الحرام شرفه الله وكرمه . وهنا يبدأ

---

(١) الرحلة/ ٦٤
(٢) الرحلة/ ٦٦
(٣) الرحلة/ ٦٧
(٤) الرحلة/ ٧٠
(٥) الرحلة/ ٨٨

التاريخ مرة أخرى دوره ليسرد المساحات وارتفاع الحيطان وماأجري عليه من تصليح واضافات وما تحتويه الكعبة من الداخل وستورها وعجائبها والميزان المبارك والحجر الاسود والمقام الكريم والحجر والمطاف وزمزم وهنا يعود لذكر المصاحف الكريمة التي اختزنت في قية الحرم ويقول : وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . وبعدها يعود إلى ذكر ابواب المسجد الحرام ومادار به من المشاهد الشريفة وعند ذكره لباب ابراهيم يشير إلى القبة العظيمة المفرطة السمو وقد صنع في داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف[2] وفي حديثه عن باب الصفا يعرج على ذكر الصفا والمروة ليحدد المساحة المحصورة بينها بالخطوات مبتدأ من الصفا إلى الميل الأخضر ومن الميل الأخضر إلى الميلين الاخضرين ومن الميلين الاخضرين إلى المروة . ويتذكر في حديثه وهو يتحدث عن هذا المسيل الذي تخترقه الآلاف في كل موسم السوق العظيمة التي يباع فيها الحبوب واللحوم والتمر والسمن وسواها من الفواكه وما يصادفه الساعون بين الصفا والمروة من ازدحام الناس وهم يتجمعون على حوانيت الباعة لأنه السوق الوحيد المنتظمة بمكة وعلى عادته في ذكر مقابر الصحابة والتابعين فقد ذكر جبانة مكة وهو الموضع المعروف بالحجون وهنا يتذكر بيتي الحارث بن مضاض الجرهمي .[3]

كأنْ لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
بَلى نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

وبعدها يفصل في المشاهد الموجودة خارج مكة ومن كان اميرا عليها وفضائل اهلها ومعارفهم وايثارهم للضعفاء والمنقطعين وهي صور تدلل على روح التعاون وحب الخير وحسن الجوار للغرباء[4]، وللمرأة نصيبها في الرحلة وسأحاول الوقوف عنده . ولكنه في حديثه عن مكة يفرد فقرة لنساء مكة المعروفات بحسنهن الفائق . وجمالهن البارع وحسن صلاحهن وعفافهن وميزة عرفن بها وهي انهن يكثرن التطيب حتى أن احداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيباً[5] وهي صفة حضارية متقدمة واهتمام جمالي متميز ، عرفن فيه وشهرن بالالتزام بادائه ويبقى زوار الحرم المكي والاسواق المحيطة به يستذكرون هذا

---

(١) الرحلة/ ٩٤
(٢) الرحلة/ ٩٦
(٣) الرحلة/ ٩٧
(٤) الرحلة/ ١٠١
(٥) الرحلة/ ١٠١

العطر الذي تقدمه في عصرنا الحاضر أحدث المصانع واكثرها معرفة بالعطر الأخاذ وهو يملأ حوانيت الباعة ويفوح في أجواء المخازن العامرة ويستمر في سرد الحديث عن قاضي مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها والمجاورين بها وعادات اهلها في صلواتهم ومواضع ائمتهم وفي الخطبة وصلاة الجمعة واستهلال الشهور والعمرة وليلة النصف من شعبان وفي شهر رمضان وشوال واحرام الكعبة وشعائر الحج والكسوة إلى أن يخرج منها في صحبة امير ركب عراقي[1] ويستغرق حديثه عنها اكثر من خمس وعشرين صفحة .

وعند وصوله إلى بغداد (دار السلام) وحضرة الاسلام ، ذات القدر الشريف والفضل المنيف ، مثوى الخلفاء ومقر العلماء لايجد وصفا يقوله فيها بعد ان تعرضت لغزو التتر ، وحملة هولاكو ، وخيانة ابن العلقمي ورهطه إلا أن يقف عند رسومها الشاخصة ودجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرأة المجلوة بين صفحتين . وما نظمه الناس في مدحها وذكر محاسنها بعد أن وجدوا مكان القول ذا سعة فاطالوا واطابوا ، ويستقطع ذكر الحمامات من حديث بغداد جزء لا بأس به لكثرتها وما وجد فيها من ابداع لأن اكثرها مطلية بالقار مسطحة به حتى يخيل لرائيه أنه رخام اسود يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع ابدابه ويصير في جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب إلى بغداد ، وهي اشارة تدفع الباحثين إلى الوقوف عند هذا المنبع الذي يؤشر ابارا أو عيونا للقار أو مواضع لمعادن ويزداد اعجابه وهو يرى أن الداخل لحمام يُعطي ثلاثا من الفوط ، احداها يتزر بها عند دخوله ، والاخرى يتزر بها عند خروجه ، والاخرى ينشف بها الماء عن جسده ويقول انه لم ير هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها في ذلك[2] وعند حديثه عن الجانب الشرقي (الرصافة) يقول وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب واعظم اسواقها يُعرف بسوق (الثلاثاء) كل صناعة فيه على حدة[3] وإن احياء سوق الثلاثاء في عصرنا اعاد لبغداد بعض أيامها ورد اليها بعض ما يجب أن يرد وهي تزهو بحضارتها ، وتعمر بعمرانها وتفخر بانتصارها . وفي وسط سوق الثلاثاء المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ، وهذا يعني أن سوق الثلاثاء كان قريبا من شارع المستنصر . (قرب عمارات مصرف ،نرافدين والمصرف المركزي حالياً) وبعدها يعرض لنظام التدريس

(١) الرحلة/ ١١٦
(٢) الرحلة/ ١٤٩ ـ ١٥٠
(٣) الرحلة/ ١٥٠

وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ، وعليه السكينة والوقار لابساً ثياب السواد معتماً وعلى يمينه ويساره (معيدان يعيدان) كل ما يمليه وهنا لابد لي من الاشارة إلى اعادة استعمال لقب المعيد الذي ظل ساريا في النظام الجامعي العراقي يعدان استبدل بلفظ (مدرس مساعد) والفرق بينهما كبير والعودة الى المصطلح العربي أدق واشمل والصق بطبيعة المهنة . وعند حديثه عن جامع الخليفة (جامع الخلفاء الحالي) قال سمعت على الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين ابي حفص عمر بن علي بن عمر مسند ابي محمد عبد الله المعروف بالدارمي سنة سبع وعشرين وسبعمائة قال : اخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين ابي الحسن . . وهذا يظهر فضل النساء ومنزلتهن في هذا العصر فتكون هذه الشيخة الصالحة راوية لحديث الرسول من مسند الدارمي وتكون حجة فيه .[1]

ثم يعدد قبور الخلفاء ببغداد وبعض العلماء الصالحين بها ويذكر أن كل قبرفيهاعليه اسم صاحبه فمنهم « المهدي » و « الهادي » و « الامين » و « المعتصم » و « الواثق » و « المتوكل » و « المنتصر » و « المستعين » و « المعتز » و « المهتدي » و « المعتمد » و « المعتضد » و « المكتفي » و « المقتدر » و « القاهر » و « والراضي » و المتبقي » و « المستكفي » و « المطيع لله » و « الطائع » و « القائم » و « المستظهر » و « المسترشد » و « الراشد » و « المقتفي » و « المستنجد » و « المستضي » و « الناصر » و « الظاهر » و « المستنصر » و « المستعصم » وهنا يقول وهو آخرهم وعليه دخل التتر بغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم ، وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك في سنة اربع وخمسين وستمائة[2] ، والتاريخ ورد بهذه الصيغة وفيه نظر لأن المعروف ان غزو بغداد كان سنة ست وخمسين وستمائة كما تجمع الروايات . وبعد اشارته إلى قبر الامام ابي حنيفة يذكر قبر الامام احمد بن حنبل وابي بكر الشبلي من ائمة المتصوفة وسريالسقطي وبشر الحافي وداود الطائي وابي القاسم الجنيد وهنا يذكر عادة بغدادية فيقول : وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه وهكذا إلى آخر الاسبوع[3] .

إن هذه الاشارة التي وقفت عليها وانا اعرض لاوصاف بعض المدن التي مر بها ووصفها تؤكدمنهجه العلمي في الوصف وموضوعيته في تحديد الطريقة التي يذكر فيها

(١) الرحلة/ ١٥١

(٢) الرحلة/ ١٥١

(٣) الرحلة/ ١٥١

اسلوبه من حديث عن المساجد والمدارس والاسواق وما تضمه من عمارة وتتميز به من اثار وان هذا التوجه يعطي دارسي المدن صورة عن أصول هذا العلم واولياته التي رسمها الرحالة والتزموا بها وهم يتابعون المدن وصفا وحديثا . وإن كل مدينة تأخذ اهميتها من خلال الانطباع الذي تركته صورتها في المأثور البلداني من جهة والاثر الذاتي من جهة أخرى ، وأن هـذا الاثـر المنهجي لم يترك ابداع الرحالة بعيدا عن التناول وهم يقرئون الملامح الاجتماعية ويقفون على عادات الناس وطبائع البشر وتجمع الاصناف وتوحد الحرف وطرق التدريس واشكال العمارة ووحدة المقاييس وضبط المسافات وغيرها مما يعطي المدن اشكالا حية في عصور وصفها وصورا متكاملة عند الحديث عنها . ولعل ذكر هذه المدن يكشف عن الاسلوب الذي تابعه في بقية المدن التي اشرت إليها في بداية الحديث .

ومن الاهتمامات التي نراها واضحة في الرحلة ذكر صناعة الثياب التي ذكرها في كثير من الحالات فعند حديثه عن الصعيد يذكر مدينة (البهنسا) فيقول عنها وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة[١] وفي مدينة (سرمين) في بلاد الشام يذكر شهرتها بصنع ثياب القطن الحسان[٢] بعد أن يذكر شهرتها بصنع الصابون الأجري الذي يجلب إلى مصر والشام . والصابون المطيب لغسل الايدي ويصنعونه بالحمرة والصفرة[٣] وفي بعلبك تصنع الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره[٤] وفي مدينة (لاذق) في الاناضول تصنع ثياب قطن معلمة بالذهب لامثل لها ، تطول اعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها واكثر الصناع بها نساء الروم[٥] وفي مدينة (اقصرا) تصنع البسط المنسوبة إليها من صوف الغنم لامثيل لها في بلد من البلاد ومنها تحمل إلى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الاتراك[٦] وفي (سيواس) تصنع ثياب حسان تنسب إليها[٧] واثواب الكمخا تصنع ببغداد[٨] وفي نيسابور تصنع ثياب الحرير من النخ والكمخا[٩] وتحمل الى الهند ، وفي مدينة (كرا) بالهند تصنع الثياب الرقيقة ومنها تجلب إلى دلهي وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما[١٠] وفي حديثه عن مدينة (الشاليات) يقول انها مدينة من حسان المدن تصنع بها

---

(١) الرحلة / ٣٩
(٢) الرحلة/ ٥٢
(٣) الرحلة/ ٥٢
(٤) الرحلة/ ٦١
(٥) الرحلة/ ٦١
(٦) الرحلة/ ١٩٢ ـ ١٩٣
(٧) الرحلة/ ١٩٦
(٨) الرحلة/ ١٩٨
(٩) الرحلة/ ٢٠٣
(١٠) الرحلة/ ٢٥٩ والنخ : بساطة طوله اكثر من عرضه

الثياب المنسوبة لها [1] وهي من بلاد الصين اما (ماردين) فبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز [2] وفي (ظفار) تصنع الثياب من الحرير والقطن والكتان وهي حسان جدا [3] .

وفي اشاراته إلى النارجيل (جوز الهند) فيقول إن عليه ليفاً يشبه الشعر تصنع منه الحبال التي تخاط بها المراكب عوضا عن مسامير الحديد وتصنع منه الحبال للمراكب [4] وفي (هرمز) يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها [5] ولشهرة الزجاج العراقي كانت الثريات العراقية تصدر إلى بلاد الاناضول لتستقر في المساجد والزوايا [6] وإلى خوارزم كانت تصدر الاواني العراقية واواني الزجاج العراقي [7] .

ومن الطبيعي أن تستغرق الاسواق من اوصافه ما يتناسب معها وخاصة عند حديثه عن المدن وذكره لتقسيماتها ويعبر عنها بصيغة مألوفة . ولها سوق عظيمة وتكاد هذه الصيغة ترافق كل وصف والطريف في أمره وهو يذكر هذه الاسواق اشارته إلى خصيصة تميزت بها فعندما ذكر (زيلع) قال وهو يصف سوقها وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلا أنها اقذر مدينة في المعمورة وأوحشها واكثرها نتناً، وسبب نتنها كثرة سمكها ودماء الأيل التي ينحرونها في الازقة ولما وصل إليها اختار المبيت بالبحر على شدة هوله ، ولم يبت بها لقذرها [8] وعند مروره بمدينة (ظفار) قال والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالخرجاء ، وهي من اقذر الاسواق واشدها نتنا ، واكثرها ذبابا لكثرة ما يباع بها من الثمرات والسمك ، واكثر سمكها النوع المعروف بالسردين . وهو بها في النهاية من السمن [9] .

واسترعت عادات الناس انتباه ابن بطوطة على الرغم من اختلاف الطبائع ، وتنافر الأمزجة وتعدد الأجناس واوشكت أن تكون الرحلة تسجيلا دقيقا لتلك العادات التي اطال بذكرها ففي ذكره لمدينة منية ابن خصيب (في مصر) يقول : دخلت يوما الحمام لهذه البلدة فرأيت الناس لا يستترون فعظم ذلك علي واخبرت قاضي المدينة فأمر

---

(١) الرحلة/ ٣٨١
(٢) الرحلة/ ١٥٩
(٣) الرحلة/ ١٧٤
(٤) الرحلة/ ١٧٦
(٥) الرحلة/ ١٨٣
(٦) الرحلة/ ١٩٠
(٧) الرحلة/ ٢٤٠ ـ ٢٤١
(٨) الرحلة/ ١٦٩
(٩) الرحلة/ ١٧٣

باحضار المكترين للحمامات وكتبت عليهم العقود ، انه متى دخل احد الحمام دون مئزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم اعظم الاشتداد[1] وفي حديثه عن مدينة عيذاب قال وهم لايورثون البنات[2] وعند حديثه عن بلاد الشام قال وهو يذكر حكاية ابي يعقوب يوسف . ومن عاداتهم في تلك البلاد أن البنت يجهزها ابوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس ، وبه يتفاخرون وبه يتبايعون[3] ويطيل في ذكر عادات اهل مكة فيذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة وفي استهلال الشهور (رجب وعمرة رجب والنصف من شعبان وشهر رمضان وشوال) وهي اشارات تدلل على تعظيم هذه الشهور وما تثيرة في النفوس وما تحييه من تطلعات توحي بعظمة هذه المواسم وقربها الى نفوس الناس والاحتفال بها بما يتناسب مع مكانتها . وعند نزوله القادسية قال ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي اظهر الله فيها دين الاسلام وأذل المجوس عبدة النار ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، واستأصل الله شأفتهم[4] وعند زيارته قبر الامام علي (رضي الله عنه) يذكر عادة الناس في ليلة السابع والعشرين من رجب ويقول ـ وتسمى عندهم ليلة المحيا ـ فيؤتى إلى الروضة ويجتمع الناس وهم بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة ـ ويؤتى بكل « مقعد » لعله يشفى . ثم يقول ، ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا إذا برىء ومنهم من يمرض رأسه فيضع راسا من ذهب او فضة ويأتي به الروضة فيجعله النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرهما من الاعضاء[5] وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال مالا يضبط لكثرته .

وعند زيارته لقبر الولي ابي العباس احمد الرفاعي في قرية ام عبيدة ، على مسيرة يوم من (واسط) يذكر أن عرب بني اسد كانوا يقطنون تلك الجهة[6] وهنا يذكر الذكر الذي اقيم بعد صلاة العشاء فيقول : ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف واخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبز الأرز والسمك واللبن والتمر فاكل الناس ثم صلوا العشاء الآخر واخذوا في الذكر والشيخ احمد قوجك حفيد ولي الله ابي العباس الرفاعي قاعد على سجادة جده . ثم اخذوا في السماع وقد اعدوا احمالا من الحطب فأججوها نارا ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ، ومنهم من يأكلها

---

(١) الرحلة/ ٤٠
(٢) الرحلة/ ٤٢
(٣) الرحلة/ ٤٩
(٤) الرحلة/ ١١٩
(٥) الرحلة/ ١٢٠
(٦) الرحلة/ ١٢٣

بفمه حتى اطفئوها جميعا ، وهذا دأبهم وهذه الطائفة الأحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه[١] .

وعند حديثه عن (ظفار) يقول ومن عاداتهم أنه إذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان إلى الساحل وصعدوا في (صنبوق) قارب صغير إلى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس وللكراني وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة افراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والأبواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وامير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لاصحاب المراكب[٢] .

ومن عاداتهم الحسنة التصافح في المسجد اثر صلاة الصبح والعصر ، يستند اهل الصف الاول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون اجمعين[٣] وبعدها يذكر ان اكثر اهلها رؤوسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل اهل المغرب وأكلهم الذرة[٤] وفي حديثه عن سلطان هرمز يقول : فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها[٥] وفي حديثه عن بلاد الاناضول اشار الى تقاليد الحزن عندهم . فقال . وعندما توفيت ام الامير ابراهيم فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك وثيابهم مقلوبة ، اما القاضي والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤوسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمائم واقاموا يطعمون الطعام اربعين يوما وهي مدة العزاء عندهم[٦] ، ويذكر ان اكل الحلواء عند اهل القوم عيب ويروي حكاية عن ذلك فيقول ان احد الكبار من مماليك السلطان وله من أولاده واولاد اولاده نحو اربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء اعتقكم جميعا ، فأبى وقال لو قتلتني ما اكلتها .[٧]

وأهل الصين يوقدون حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ، ثم إذا

---

(١) الرحلة/ ١٢٤
(٢) الرحلة/ ١٧٤
(٣) الرحلة/ ١٧٤
(٤) الرحلة/ ١٧٤
(٥) الرحلة/ ١٨٣
(٦) الرحلة/ ٢١٣
(٧) الرحلة/ ٢١٦

صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطحنوا به ثانية كذلك حتى يتلاشى[1] .

ويتحدث عن بطيخ خوارزم الذي يقدد ويبس في الشمس ويجعل في القواصر ويحمل الى اقصى بلاد الهند والصين وليس في جميع الفواكه اليابسة اطيب منه[2] .

اما اهل مدينة (ترمذ) فيغسلون رؤوسهم في الحمام باللبن عوضا عن الطفّل (الطين اليابس) ويكون عند كل صاحب حمام اوعية كبار مملوءة لبنا ، فاذا دخل الرجل الحمام اخذ منها في اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله ، واهل الهند يجعلون في رؤوسهم زيت السمسم ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى اهل الهند ومن سكن معهم[3] وللطعام عادات يكثر من ذكرها[4] ، ولابد أن تجد عادات احراق الموتى صدى في الرحلة وهو يقف على بعد خطوات منها، فعندما هرع الناس لرؤية ميت اججت النار لأحراقه وان امرأته تحرق نفسها معه ، وان المرأة عانقت الميت حتى احترقت معه[5] واحراق المرأة بعد زوجها امر مندوب اليه غير واجب ، لكن من احرقت نفسها بعد زوجها احرز اهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا الى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب واقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولكنها لا تكره على احراق نفسها[6] ويذكر قصة غريبة عن احراق ثلاث نسوة لانفسهن ويفصل في الطريقة التي اتبعت[7] وكذلك تفعل اهل الهند ايضا في الغرق فيغرق كثير منهم انفسهم في نهر الكنك وهو الذي اليه يحجون ، وفيه يرمي برماد هؤلاء المحروقين وهم يقولون انه من الجنة [8] ، ويذكر عادة المسلمين في الهند عند دفن الموتى فيقول : وعادتهم ان يخرجوا الى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ، ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الازاهير وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول ، ويجعلون اغصان النارنج والليمون ثمارها ، وان لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ، ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل [9] .

وهي معتقد يرتبط باساطير قديمة الفتها الشعوب واصبحت جزءً من حياتها وهي تواجه الموت وتعبر عن حيرتها حياله وصلتها بالميت وهو يبتعد ، ولعل اساليب التعبير عن

(١) الرحلة/ ٢٤١
(٢) الرحلة/ ٢٤٢
(٣) الرحلة/ ٢٥٢
(٤) الرحلة/ ٢٧٠
(٥) الرحلة/ ٢٧٢
(٦) الرحلة/ ٢٧٤
(٧) الرحلة/ ٢٧٤
(٨) الرحلة/ ٢٧٥
(٩) الرحلة/ ٣٣٧

الاعتزاز واشكال المودة التي تتجسد في الحالات الاولى من الحدث تحمل الناس على التعبير وفق الاشكال التي تراها ، وتبقى الخضرة والماء هي الرمز المعبر عن الرضوان والخلود والبقاء والدوام . ثم يذكر عادتهم في اطعام الناس في الولائم[1] .

وعند حديثة عن جزائر ذيبة المهل يذكر انها احدى عجائب الدنيا وهي نحو الفي جزيرة ويكون منها مائة في دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لاتدخل المراكب الامنة ، واذا وصل المركب الى احداها فلابد له من دليل من اهلها يسير به اما سائر الجزر (وتقع في بحر الهند) ومن عادة اهل هذه الجزائر انهم اذا صلوا الصبح اتت كل امرأة الى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته ، وتزيل الشحوب عن وجهه . واذا لقي احدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ، ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله . ومن عاداتهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته بسطت له ثياب القطن من باب دارها الى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه الى البيت وشماله ، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظر ، فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه . . .[2]

وجميع أهل هذه الجزائر حفاة الاقدام من رفيع ووضيع وازقتهم مكنوسة نقية تظللها الاشجار ، فالماشي بها كأنه في بستان ، ومع ذلك لابد لكل داخل الى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية ، ويمسحها بحصير غليظ من الليف هنالك ، ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل الى المسجد[3] ، ومن عاداتهم اذا قدم عليهم مركب ان تخرج اليه القوارب الصغار ، وفيها اهل الجزيرة ومعهم التانبول ، وجوز النارجيل الاخضر ، فيعطي الانسان منهم ذلك من شاء من أهل المركب ويكون نزيله ، ويحمل امتعته الى داره كأنه بعض اقربائه . ومن اراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلق المرأة ، لأنهن لا يخرجن عن بلادهن ، ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه ، وتزوده اذا سافر ، وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الاحسان[4] . ويذكر معاملتهم في البيع والشراء فيقول : وهم يشترون الفخار إذا جلب اليهم بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست[5] .

---

(١) الرحلة/ ٣٥٠
(٢) الرحلة/ ٣٨٣
(٣) الرحلة/ ٣٨٣
(٤) الرحلة/ ٣٨٣
(٥) الرحلة/ ٣٨٣ وينظر بقية الخبر

وعند حديثه عن بعض أحوال اهل الصين يقول : وجميع اهل الصين انما يحتفلون بأواني الذهب والفضة ، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ، والحرير عندهم كثير جدا لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤونة ، ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ، ولولا التجار لما كانت له قيمة ، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يسبك التاجر مايكون عنده من الذهب والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ، ويجعل ذلك على باب داره ، ومن كان له خمس قطع منها جعل في اصبعه خاتما ، ومن كانت له عشر خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه (السني) وهو بمعنى (الكارمي) بمصر[1] . . .

ويفرد المؤلف في رحلته بابا واسعا للحديث عن المدارس والتعليم وهذا الباب يتصل بحديثه عن المدن تارة والاوقاف تارة اخرى . باعتبار المدارس جزء من مرافق المدن ففي مدينة واسط مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن ، ويعطي كل متعلم بها كسوة في السنة ، ويجري له نفقته في كل يوم[2] .

وعند حديثه عن مدينة (بركي) قال وكنا قد علمنا ان بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى محي الدين ، فأتى بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده (وكان من الطلبة) إلى المدرسة وإذا بالمدرس قد اقبل راكبا على بغلة فارهة ومماليكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه ، وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب[3] ثم جاء القاضي عز الدين فقعد عن يمين المدرس ، واخذ في تدريس العلوم الاصلية والفرعية .

وأهل مدينة (هنور) في الهند لهم صلاح ودين وجهاد في الحرب وقوة ، ونساء هذه المدينة لهن جمال وعفاف ومن خصائصهن انهن جميعا يحفظن القرآن العظيم ، ويذكر أنه رأى بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد ، ولم ير ذلك في سواها[4] واهل جزائر ذبة المهل يكتبون الاوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ، ولا يكتبون في الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم[5] ولم تفته الاشارة الى ذكر دور الطلبة التي اعدت لضيافتهم وكانت تستخدم في حالة العطل للضيوف[6] .

---

(١) الرحلة/ ٤١٥
(٢) الرحلة/ ١٢٣
(٣) الرحلة/ ١٩٩
(٤) الرحلة/ ٣٧١
(٥) الرحلة/ ٣٨٦
(٦) الرحلة/ ١٧٠

وللمرأة في حديث ابن بطوطة صور مختلفة تتفاوت صورتها وفق الاحوال التي يتعامل معها أو يراها أو يسمع عنها أو يتأثر ببعض عادات النساء وهو يرى اما ويعيش مع أجناس ففي دمشق وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة للهجرة تجيزه اجازة عامة الشيخة الصالحة ام محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني ، والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين احمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن احمد المقدسي[1] . واجازته وسماعه بالجامع الاموي لجميع صحاح البخاري وهي اشارة تؤكد المنزلة الرفيعة التي كانت تتمتع بها المرأة فتجيز العلماء ، ويذكر اهل شيراز ويصفهم بالصلاح والدين والعفاف وخصوصا النساء ويقول : وهن يلبسن الخفاف ، ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء ، ولهن الصدقات والأيثار ، ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم . فربما اجتمع منهن الألف والألفان ، بأيديهن المراوح ، يروحن بها على انفسهن من شدة الحر ولم أر اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد[2] ومن خصائص نساء مدينة هنور (في الهند) انهن جميعا يحفظن القرآن العظيم . ورأى المؤلف بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد ولم ير ذلك في سواها[3] .

اما اعمال النساء الصالحات فكان يشير إلى بعضها احيانا فعندما يتحدث عن مدينة (بلخ) يذكر مسجدها الذي بنته امرأة صالحة كان زوجها اميرا لبني العباس ، ويقول أن الخليفة غضب مرة على بلخ لحادث احدثوه فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ بلخ اتى نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الامير الذي قدم لتغريمهم بثوب مرصع بالجوهر ، قيمته اكثر مما أمر بتغريمه فقال له : اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد اعطيته صدقة عن اهل بلخ لضعف حالهم ، فذهب الى الخليفة والقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال : اتكون المرأة اكرم منا . وامره برفع الغرم وبالعودة اليها ليرد للمرأة ثوبها واسقط عن أهل بلخ خراجه سنة ، فعاد الأمير الى بلخ واتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة ورد عليها الثوب فقالت له : أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب ، قال نعم . قالت لا ألبس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني ، وأمرت ببيعه فبنى منه المسجد والزاوية والرباط[4] وعند مروره على مدينة قلهات وقع نظره على مسجد من احسن المساجد ،

(١) الرحلة/ ٧٧
(٢) الرحلة/ ١٣٦
(٣) الرحلة/ ٣٧١
(٤) الرحلة/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤

حيطانه بالقاشاني وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه إلى البحر والمرسى ، والمسجد هذا من عمارة الصالحة (بيبي مريم)[1] .

ويتحدث عن مدينة قريبة من (يزنيك) في الاناضول وحاكمتها (بيلون خاتون) وهي امرأة صالحة فاضلة[2] ، أما المرأة العاملة فكانت موضع انتباهه . ففي القسطنطينية يتحدث عن (اصطنبول) التي فيها سكن السلطان فيتحدث عن اسواقها وشوارعها المفروشة بالصفاح ثم يقول : واهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم ، واكثر الصناع والباعة بها النساء[3] وفي مدينة (لاذق) في بلاد الاناضول التي تعد من ابدع المدن واضخمها وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة واسواقها حسان يقول واكثر الصناع بها نساء الروم[4] ، اما عادات الزواج فأقف عند حديثين اشار في الاول وهو يتحدث عن مدينة زبيد (في اليمن) عن النساء اللواتي يجدن للغريب مزية ولا يمتنعن من تزوجه ـ كما تفعل نساء بلاده ـ فاذا اراد السفر خرجت معه وودعته . واذا كان مقيما فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن لا يخرجن عن بلدهن ابدا ، ولو اعطيت احداهن ما عسى ان تعطاه على ان تخرج من بلدها لم تفعل[5] وذكر في الثاني وهو يتحدث عن جزائر ذئبة المهل (جنوب الهند) ان من اراد التزوج من القادمين على اهل هذه الجزر وتزوج ، فاذا حان سفره طلق المرأة لانهن لا يخرجن عن بلادهن[6] وفي هاتين الاشارتين كشف عن مدى الارتباط الذي يشد المرأة بوطنها ويدفعها الى ان تظل في بلدها .

ولم يترك ابن بطوطة انطباعاته وهو يرى شأن المرأة وعلو منزلتها في بعض المجتمعات التي مر بها على الرغم مما وقف عليه من احوال ففي مدينة (قيسارية) في بلاد الاناضول يقول : ورأيت بهذه البلاد عجبا من تعظيم النساء عندهم ، وهن أعلى شأنا من الرجال[7] وفي مدينة (بردامة) وهي قبيلة من البربر ، قال : والمرأة عندهم اعظم شأنا من الرجل وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل ، يقيمون اعوادا من الخشب ويضعون عليها الحصر ، وفوق ذلك اعواد مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن[8]

---

(١) الرحلة/ ١٨٠
(٢) الرحلة/ ٢٠٦
(٣) الرحلة/ ٢٣٣
(٤) الرحلة/ ١٩٣
(٥) الرحلة/ ١٦٥
(٦) الرحلة/ ٣٨٣
(٧) الرحلة/ ٢١٩
(٨) الرحلة/ ٤٥٣

ومن الطريف في الرحلة محاولة ابن بطوطة أن يتحدث عن الملابس التي كان يراها فابناء الملوك والوزراء يلبسون (التلاليس)[1] وكسوة اهل مقديشو فوطه خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ، ودراعة من المقطع المصري معلمة ، وفرجية من القدسي مبطنة وعمامة مصرية معلمة[2] ولباس اهل مدينة (ظفار) القطن وهو يجلب من بلاد الهند ، ويشدون الفوط في اوساطهم عوض السراويل ، واكثرهم يشد فوطته في وسطه ويجعل فوق ظهره اخرى من شدة الحر[3] وعلى سلطان ما وراء النهر قباء قدسي اخضر،وعلى رأسه شاشية[4]ولباس جزائر ذنبة المهل فوط ، يشدون الفوطة منها على اوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثيابا كالمحرمين ، وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا عنها ، واذا لقي احدهم القاضي او الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره[5] .

وللاوقاف في التشريع الاسلامي دور واضح ، لما قدمته من مآثر ، فقد اسهمت في نشر التعليم وأعانت على رفع حاجة المعوزين ، وخففت هموم الفقراء الذين ضاقت عليهم سبل الحياة وقد أدت هذه المؤسسة دورها المتميز على امتداد الدولة الاسلامية لما قدمته من اعمال انسانية رائدة في المجال الاجتماعي والثقافي والصحي والديني ومن الطبيعي ان يجد فيها ابن بطوطة مادة حية وهو يرى اثارها ويتلمس دورها فعند حلوله في مدينة اسيوط التقى بقاضيها ، والقضاة بديار مصر والشام بأيديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل ، فإذا اتى فقير لمدينة من المدن قصدالقاضي فيعطيه ما قدر عليه[6] . وعندما نزل بدمشق وجد فيها اوقافا لا تحصر انواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها اوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطي من يحج عن الرجل منهم كفايته ، وفيها اوقاف تجهز البنات الى أزواجهن ، وهن اللواتي لاقدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها اوقاف لفكاك الاسارى ، ومنها اوقاف لابناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها اوقاف على تعديل الطرق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون ، ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من افعال الخير[7] . ومن الطبيعي ان يكون هذا النظام عاملا من عوامل التأثير البالغ في حياة

---

(١) الرحلة/ ١٣٢
(٢) الرحلة/ ١٧٠
(٣) الرحلة/ ١٧٤
(٤) الرحلة/ ٢٤٧
(٥) الرحلة/ ٣٨٢
(٦) الرحلة/ ٤٠
(٧) الرحلة/ ٧٣

الناس لانه يهدف الى كل خير ، ويسعى لحماية الفرد من فاقة العوز وييسر له سبل الحياة الكفيلة بالعيش الرضي ولا تفوت ابن بطوطة حكاية ذلك المملوك الصغير الذي مرّ به يوما ببعض ازقة دمشق وقد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني ـ وهم يسمونها الصحن ـ فتكسرت ، واجتمع عليه الناس ، فقال له بعضهم ، اجمع شقفها ، واحملها معك لصاحب اوقاف الأواني ، فجمعها وذهب الرجل معه إليه فأراه اياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن ، وهذا من أحسن الاعمال ، فان سيد الغلام لابد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره ، وهو ايضا ينكسر قلبه ، ويتغير لأجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب ، جزاه الله خيرا من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا[1] . والوقف رعاية اجتماعية تكفل للانسان الوجه الذي يتأتى منه معاشه . من أمامة مسجد ، او قراءة بمدرسة او ملازمة مسجد يجيء اليه رزقه ، أو قراءة القرآن ، والغريب في دمشق يبقى على خير عن بذل وجهه ، محفوظا عما يزري بالمروءة مصونا عن كل ما يدعو الى الذلة والمسألة ، اما اهل المهنة والخدمة فلهم أسباب آخر من كفالة صبيان يغدو معهم الى التعلم ويروح ، ومن اراد طلب العلم أو التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك[2] .

وظل حب الرحلة والبحث عن المجهود وتحقيق ما يسمعه الانسان وتصديق ما يذكر من وقائع والكشف عن الغرائب التي تعلق في ذهنه وهو يقرأ اخبارها ويتابع احداثها هو الدافع الأساسي في تحقيق هذا التطلع المشروع الذي تركبه النفوس التواقة وتشتاق اليه الهمم الرفيعة وفي سفر ابن بطوطة إلى مدينة بلغار ما يعطي هذه الحقيقة صورتها المطلوبة فيذكر أنه سمع بمدينة بلغار فأراد التوجه إليها ليرى ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار ايضا في عكس ذلك الفصل ، وتمكن من الوصول إليها في رمضان وأقام بها ثلاثا ودفعه تطلعه إلى أن يدخل إلى ارض الظلمة والدخول إليها من بلغار وبينهما اربعون يوما ولكنه اضرب عن ذلك لعظم المئونة فيه وقلة الجدوى . ولكن اضرابه عن الوصول اليها لم يمنعه من ذكر المبررات التي عبر عنها بعظم المئونة وقلة الجدوى ، فالسفر الى ارض الظلمة لايكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار ، لأن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها ، والكلاب لها الاظفار ، فتثبت اقدامها في

---

(١) الرحلة/ ٧٣ ـ ٧٤

(٢) الرحلة/ ٧٤

الجليد . ثم يقول . ولا يدخلها إلا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة ، أو نحوها ، موقرة بطعامه وشرابه وحطبه ، فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر .

والدليل بتلك الأرض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة ، وتنتهي قيمته الى الف دينار ونحوها ، وتربط العربة إلى عنقه ويقرن معه ثلاثة بين الكلاب ويكون هو المقدم ، وتتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت ، وهذا الكلب لا يضربه صاحبه ولا ينهره ، واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم ، وإلا غضب الكلب وفر وترك صاحبه[1] . بهذا الوصف الدقيق وذكر الطباع وتعليل الأسباب يستمر بالوصف لينتهي إلى القول : فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة اربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ماجاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد . فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدونه بازائه من (السمور) و (السنجاب) و (الفاقم) فإن ارضى صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه اخذه ، وان لم يرضه تركه فيزيدونه او ربما رفعوا متاعهم ، يعني اهل الظلمة ، وتركوا متاع التجار ، وهكذا بيعهم وشراؤهم[2] . ويعقب على ذلك فيقول : ولا يعلم الذين يتوجهون إلى هنالك من يبايعهم ويشاريهم ، أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون احدا . وبعدها يتحدث عن فراء الفاقم وسعره ولونه والسمور واسعارها .[3]

ومن الغريب أن تبقى وسائل الرحلة ومئونتها ومتاعها بعيدة عن الذكر في النص الأول ولكنه ينصرف الى ذكرها وبشكل يكاد يكون تفصيلياً عند دخوله بلاد الاناضول ، وربما دفعته إلى ذلك متاعب الطريق ووعورة المسالك ، فقد بدأ يذكر الأفراس التي استخدمها في الرحلة فذكر فرساً مات له في ليلة شديدة البرد[4] واخذ الغلام الذي كان له افراسه وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب يسقيها[5] وبات ليلة عند قوم من التركمان فلم يجد عندهم ما يعلف به دوابه[6] وسرق له فرس من جياد الخيل[7] ، وعندما وصل إلى كبنوك كان له فرس من الجياد[8] وفي مدينة (مطرني) مات له فرس في

---

(١) الرحلة/ ٢٢٥
(٢) الرحلة/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦
(٣) الرحلة/ ٢٢٦
(٤) الرحلة/ ٢٠٠
(٥) الرحلة/ ٢٠٣
(٦) الرحلة/ ٢٠٤
(٧) الرحلة/ ٢٠٤
(٨) الرحلة/ ٢٠٨

بعض المنازل[١] وأمر له سلطان قصطمونية فرسا عتيقا قرطاسي اللون[٢] وفي مدينة (أزاق) انعم عليه بفرس[٣] ويبدو أنه كان يستعمل علما في الرحلة لأنه يشير إليه عند وصوله إلى (المحلة) حيث يقول : وركزت العلم امام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك[٤] ، وعندما يدخل إلى البرية يركب العربات[٥] ويكتري عجلة يجرها الفرس فيركبها ليصل الى مدينة الكفا[٦] ويكتري عجلة ويسافر الى مدينة القرم[٧] ويشتري العجلات إذا احتاج اليها[٨] ويفرد للعجلات ذكرا خاصا وهو باب طريف فالعجلة تسمى عربة وهي عجلات تكون الواحدة منهن اربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره اكثر من ذلك وتجرها ايضا البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفتها . والذي يخدم العربة يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليها سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به إذا عاجت عن القصد . ويجعل على العربة قبة من قضبان خشب ، مربوط بعضها إلى بعض بسيور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طبقان مشبكة ، ويرى الذي بداخلها الناس ولا يرونه ، ويتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره . والتي تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكر وعليها قفل .

وجهز لما اراد السفر عربة لركوبه مغشاة باللبد ومعه بها جارية له وعربة صغيرة لرفيقه عفيف الدين التوزري . وجلة كبيرة لسائر الأصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب احدها خادم العربة .

وعادة الأتراك أن يسيروا في هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج في درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحا ، ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا ، واذا نزلوا خلوا الخيل والأبل والبقر عن العربات وسرحوها للرعي ليلا ونهارا[٩] وفي المناطق التي يقل فيها الكلأ لا تستخدم الخيل في جر العربات وانما تجرها الجمال[١٠] وفي هذه

---

(١) الرحلة/ ٢٠٩
(٢) الرحلة/ ٢١١
(٣) الرحلة/ ٢١٨
(٤) الرحلة/ ٢٢٠
(٥) الرحلة/ ٢٣٧
(٦) الرحلة/ ٢١٤
(٧) الرحلة/ ٢١٥
(٨) الرحلة/ ٢١٥
(٩) الرحلة/ ٢١٥ - ٢١٦
(١٠) الرحلة ٢٣٨

الحالة يبيع الخيل ويكتري بدلها الجمال [1] ويشير عند حديثه عن خوارزم إلى تكاثر الخيل عنده . حتى انتهت إلى عدد لايذكره ، خيفة مكذب يكذب به ، ولم تزل حاله في الزيادة حتى دخل أرض الهند [2] ، ولما اراد السفر من خوارزم اكترى جمالا ، وركب الخدام بعض الخيل وجلل باقيها لاجل البرد[3] ، وكان يضطر لطرح بعض الزاد ويترك احمال الجمال التي تعيا في الطريق [4] ، وعندما وصل إلى بلاد السند اشترى من التجار الخيل والجمال ، فاشترى من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة (غزنه) نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من النشاب مما يهدي إلى السلطان [5] وعندما ذكر سفره عن (مالي) كان له جمل يركبه لان الخيل فيها غالية الاثمان يساوي أحدها مائة مثقال [6] وفي قرى منسا مات له الجمل الذي كان يركبه[7] وعندما قصد السفر إلى (توات) اشترى جملين بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث[8] وكان يستعمل الجمل لركوبه والناقة لحمل الزاد[9] .

ولم يقتصر حديثه في الرحلة على الاشارات العابرة للخيل وانما يفرد لها في بعض الاحيان حديثا طويلا وخاصة إذا وجد بها اهتماما بحيث تصبح من الهدايا ففي مدينة (أزاق) خيول كثيرة جدا ، وثمنها نزر ، قيمة الجيد منها خمسون درهما أو ستون من دراهمهم، وهذه الخيل هي التي تعرف بمصر بالاكاديش ومنها معاشهم ، وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل اكثر فيكون للتركي منهم الآف منها . ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها ويركب احدها وبيده عصا طويلة فيها حبل ، فاذا اراد ان يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي . واذا وصلوا بها إلى ارض السند اطعموها العلف ، لأن نبات ارض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق[10] ، ولا يُنسى الغرم الذي يؤخذ عليها وهو سبعة دنانير فضة على الفرس[11] .

ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم . وصرفها من الذهب المغربي خمسة وعشرون دينارا ، وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه ، والجياد منها تساوي خمسمائة دينار واكثر من ذلك .

(١) الرحلة/ ٢٣٨
(٢) الرحلة / ٢٤١
(٣) الرحلة/ ٢٤٣
(٤) الرحلة/ ٢٦١
(٥) الرحلة/ ٢٦٣
(٦) الرحلة/ ٤٥١
(٧) الرحلة/ ٤٥١
(٨) الرحلة/ ٤٥٤
(٩) الرحلة / ٤٥٢
(١٠) الرحلة/ ٢١٨
(١١) الرحلة/ ٢١٨

واهل الهند لا يبتاعونها للجري والسبق ، لانهم يلبسون في الحرب الدروع ، ويدرعون الخيل ، وانما يبغون قوة الخيل واتساع خطاها ، والخيل التي يبتغونها للسبق تجلب إليهم من اليمن وعمان وفارس ، ويباع بألف دينار الى اربعة الآف[1] .

ولم تكن الجمال أو الخيل أوالعربات وحدها وسيلته للسفر وانما كان البحر وسيلة اخرها يتخذها عندما تنقطع الوسائل الاخرى . وقد تحدث عن أنواع السفن والزوارق التي استخدمها أو وجدها عند نزوله الى الساحل . فعند سفره من زيلع إلى مقديشو سافر منها في البحر خمس عشرة ليلة ومن عادة اهل مقديشو أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق (وهي القوارب الصغار) ـ اليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان أهلها ، فيأتي واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول : هذا نزيلي وكذلك يفعل كل واحد منهم[2] وعند سفره الى بر الترك ركب البحر من اللاذقية في (قرقورة) كبيرة وقصد بر التركية المعروف ببلاد الروم[3] .

ومن الطبيعي ان تشير الرحلة ـ وهي تستغرق خمسا وعشرين سنة ـ إلى طرق التمويل التي اعتمدها ، أو الطريقة التي كان يسلكها لسد النفقات التي يحتاج اليها . وكان يجد في الزوايا التي يرتادها والمقامات العليا التي يقصدها والسلاطين والامراء الذين يزورهم ما يعينه على الاستمرار في تجهيز الرحلة والصرف عليها وشراء ما يهيء له أسباب التنقل ، وهو في كل مدينة أو قرية يجد الطعام والشراب فيقيم الايام والشهور . وساحاول الوقوف عند بعض الصور التي اخترتها ، ففي مدينة (بركي) كان يوجه إليه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع في كل ليلة ، ويبعث اليه سلطان المدينة مائة مثقال ذهبا والف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل ، وبعث لكل من اصحابه كسوة ودراهم[4] ، وحين قدومه على أمير (يزمير) بعث اليه ضيافة عظيمة واعطاه مملوكا روميا اسمه (نقولة) وثوبين من الكمخا وهي ثياب حرير تصنع ببغداد واعطى ايضا الشيخ عز الدين الذي كان يرافقه ثلاثة افراس مجهزة وآنية فضية كبيرة تسمى عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقدسي والكمخا وجواري وغلمانا[5] ويستقبله سلطان كردي بولي ويسأله عن حاله ويقيم ساعة ثم ينصرف ويبعث بدابة مسرجة وكسوة[6] وأمر سلطان قصطمونية بانزاله على قرب منه وأعطاه فرسا عتيقا

(١) الرحلة/ ٢١٨ ـ ٢١٩
(٢) الرحلة/ ١٦٩
(٣) الرحلة/ ١٨٨
(٤) الرحلة/ ٢٠٢
(٥) الرحلة/ ٢٠٣
(٦) الرحلة/ ٢١٠

قرطاسي اللون وكسوة وعين له نفقة وعلفا ، وأمر له بعد ذلك بقمح وشعير .[1]

ولما سافر الامير تلكتمور عن مدينة الماجر أقام بها ثلاثة أيام حتى جهز له الأمير محمد خواجه الآت سفره[2] ووصله سلطان مدينة الحاج ترخان بألف وخمسمائة دينار وخلعة وافراس كثيرة واعطته كل خاتون سبائك الفضة واعطته من السلطان أكثر ما اعطته كل خاتون واجتمع له من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة[3] وحين انصرف عن القسطنطينية أعطته الخاتون ثلاثمائة دينار من ذهبهم والفي درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود انواعه وعشرة اثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وكانت مدة مقامه عندهم شهرا وستة ايام[4] .

ولما عزم على السفر بعد مقامه عند سلطان ما وراء النهر اربعة وخمسين يوما اعطاه سبعمائة درهم وفروة سمور تساوي مائة دينار طلبها منه لأجل البرد وفرسين وجملين[5] ولما ركب إلى دار السلطان بالهند وسلم على الوزير أعطاه بدرتين كل بدرة من الف دينار دراهم وأعطاه خلعة من المرعز وكتب جميع اصحابه وخدامه وغلمانه فجعلوا اربعة اصناف . فالصف الاول منها اعطى كل واحد منهم مائتي دينار والصف الثاني اعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا والصف الثالث اعطى كل واحد مائة دينار والصف الرابع اعطى كل واحد خمسة وسبعين دينارا وكانوا نحو اربعين وكان جملة ما عطوه اربعة الآف دينار ونيفا[6] .

إن هذه النماذج ، التي قدمها ابن بطوطة تعطي الصورة التي كان يعتمدها في الرحلة وإن هذا العطاء الذي كان يتفاوت بين كل فئة وطائفة وأمير وسلطان وشيخ وتاجر كان الزاد الذي يتزود به ، والقوت الذي يحرك فيه نزعة الامتداد والاستمرار لانجاز الرحلة واكمال المشوار الطويل الذي أخذ نفسه به ولم تخفف هذه العطايا والهدايا ما كان يصادفه من متاعب أو يجابهه من اخطار وهي كثيرة حفلت بها الرحلة وتوزعت خطورتها وفق الاقطار التي كان يمر بها ، فقد عرض لمصاعب الرحلة وهو يقترب من مدينة قلهات بعد ان خيلت له انها قريبة واكترى احد البحريين ليد له على الطريق فأخذ أثوابا ودفعها إلى الدليل ليكفيه مئونة حملها وحمل رحا ووجد ان الدليل يسعى للاستيلاء على

---

(١) الرحلة/ ٢١١
(٢) الرحلة/ ٢١٩
(٣) الرحلة/ ٢٢٩
(٤) الرحلة/ ٢٣٧
(٥) الرحلة/ ٢٤٨
(٦)

اثوابه فأتى به إلى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فأراد عبوره بالثياب فقال له : انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا . فرجع ثم رأى رجالا جازوه عوما فتحقق من قصد الدليل وهنا أظهر نشاطه وأخذه بالحزم وكان يهز الرمح بين الحين والحين فهابه الدليل[1] ثم خرجا إلى صحراء لا ماء بها ، وعطش واشتد به الأمر حتى بعث الله لهما فارسا في جماعة من اصحابه وبيد احدهم ركوة ماء فسقاهما ، ولما كان بين العشي اراد الدليل ان يميل به ناحية البحر ، وليس هو بالطريق لأن ساحله حجارة وكان غرضه ان يتركهما ويذهب بالثياب . . وعلى الرغم من الأعياء الذي ادركه والجهد الذي صادفه . كان يظهر القوة والتجلد خوفا من الدليل . وعندما حلّ الليل جعل الدليل بينه وبين صاحبه وجعل الثياب بين ثوبه وجسده وامسك بيده الرمح ، ورقد صاحبه ولكنه ظل ساهراً ، وكلما تحرك الدليل كلمه وأراه انه مستيقظ ويصور وضعه بعد وصوله الى قلهات وهو في جهد عظيم وقد ضاقت نعله على رجله حتى كاد الدم أن يخرج من تحت اظفارها[2] .

وفي حديثه عن (كاوية) قرب (برصة) في الاناضول . قال : ولما كان الصباح ركبنا واتانا الفارسي الذي بعثه الفتى معنا من كاوية وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى الطريق فتقدمنا ذلك الفارسي فاتبعنا أثره إلى أن وصلنا في نصف النهار إلى قرية للتركمان فأتوا بطعام فأكلنا منه وكلمهم ذلك الفارسي فركب معنا احدهم وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة ، فلما خلصوا من ذلك قال لهم الفارسي : اعطوني شيئا من الدراهم . فقالوا له : إذا وصلنا إلى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منهم ، أولم يفهم عنهم ، فأخذ قوسا لبعض اصحابه ومضى غير بعيد ثم رجع فرد اليهم القوس ، فأعطاه شيئا من الدراهم فأخذها وهرب عنهم وتركهم لا يعرفون اين يقصدون وكانوا يتلمحون اثر الطريق تحت الثلج ويسلكونه إلى أن بلغوا عند غروب الشمس جبلا لم يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخاف الهلاك على نفسه وعلى من معه ، وتوقع نزول الثلج ليلا ولم يجدوا عمارة تقيهم فاذا نزلوا عن الدواب هلكوا ، وان سروا ليلتهم لا يعرفون اين يتوجهون[3] .

ويمكن اعتبار رحلته إلى الصين وما صادفه فيها من أهوال اخطر ما تعرض له في الرحلة لأنه أفرد له حديثا خاصا بعد أن وصل إلى مدينة (كول) وابلاغهم بان بعض

(١) الرحلة/ ١٧٩
(٢) الرحلة/ ١٨٠
(٣) الرحلة/ ٢٠٧

كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالي واحاطوا بها وهي على مسافة سبعة من كول فقصدها وجمع له اصحابه والكفار يقاتلون أهلها وقد شرفوا على التلف[1] ، ولم يعلم الكفار بهم حتى صدقوا الحملة عليهم وكان الكفار في نحو الف فارس وثلاثة آلاف راجل فتمكنوا منهم واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا ، وخمسة وخمسون راجلا . واستشهد الفتى كافور الساقي الذي كانت الهدية مسلمة بيده ، فكتبنا إلى السلطان بخبره ، وأقمنا في انتظار الجواب .

وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع ، فيغيرون على نواحي بلدة الجلالي . وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم .

وفي بعض تلك الأيام ركبت (والحديث لابن بطوطة)[2] في جماعة من أصحابي ودخلنا بستانا نقيل فيه ، وذلك فصل القيظ ، فسمعنا الصياح فركبنا ، ولحقنا كفارا أغاروا على قرى الجلالي . فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابي في طلبهم ، وانفردت في خمسة من أصحابنا . فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ، ففررنا منهم لكثرتهم ، وأتبعني نحو عشرة منهم ، ثم انقطعوا عني الا ثلاثة منهم ، ولا طريق بين يدي .

وتلك الأرض كثيرة الحجارة ، فنشبت يد فرسي بين الحجارة ، فنزلت عنه واقتلعت يده واعدت الى ركوبه .

والعادة بالهند أن يكون مع الانسان سيفان ، أحدهما معلق بالسرج ويسمى الركابي ، والآخر في « التركش » . فسقط سيفي الركابي من غمده وكانت حليته ذهبا . فنزلت فاخذته وتقلدته ، وركبت وهم في اثري . ثم وصلت الى خندق عظيم فنزلت ودخلت في جوفه ، فكان آخر عهدي بهم .

ثم خرجت إلى واد في وسط شعراء ملتفة في وسطها طريق ، فمشيت عليه ولا أعرف منتهاه . فبينما أنا في ذلك خرج على نحو اربعين رجلا من الكفار بأيديهم القسي، فأحدقوا بي . وخفت ان يرموني رمية رجل واحد ان فررت منهم ، وكنت غير متدرع ، فألقيت بنفسي إلى الأرض واستأسرت ، وهم لا يقتلون من فعل ذلك .

---

(١) الرحلة/ ٢٥٥

(٢) الرحلة/ ٢٥٦

فأخذوني وسلبوني جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ، ودخلوا بي إلى تلك الغابة فانتهوا بي إلى موضع جلوسهم منها ، على حوض ماء بين تلك الأشجار ، وأتوني بخبز ماش وهو الجلبان ، فأكلت منه وشربت من الماء .

وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية وسألاني عن شأني ، فأخبرتهما ببعضه ، وكتمتهما أني من جهة السلطان .

فقالا لي : لابد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم ، ولكن هذا مقدمهم ، وأشاروا إلى رجل منهم . فكلمته بترجمة المسلمين ، وتلطفت له ، فوكل بي ثلاثة منهم ، أحدهم شيخ ومعه ابنه ، والآخر أسود خبيث ، وكلمني أولئك الثلاثة ، ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلي . واحتملوني عشي النهار إلى كهف .

وسلط الله على الأسود منهم حمّى مرعدة ، فوضع رجليه على ، ونام الشيخ وابنه . فلما أصبحنا تكلموا فيما بينهم ، وأشاروا إلى بالنزول معهم إلى الحوض . وفهمت أنهم يريدون قتلي ، فكلمت الشيخ وتلطفت له فرق لي ، وقطعت كمي قميصي وأعطيته اياهما لكي لا يأخذه أصحابه في ان فررت .

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم ، فأشاروا إلى بالنزول معهم ، فنزلنا ووجدنا قوما آخرين ، فأشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم فأبوا . وجلس ثلاثتهم أمامي وانا مواجه لهم ، ووضعوا حبل قنب كان معهم بالارض وأنا أنظر اليهم ؛ وأقول في نفسي : بهذا الحبل يربطونني عند القتل .

وأقمت كذلك ساعة ، ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم ، وفهمت أنهم قالوا لهم : لأي شيء ما قتلتموه ؟ فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه . وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لي : اتريد ان اسرحك ؟

فقلت : نعم

فقال : اذهب .

فأخذت الجبة التي كانت على فأعطيته اياها . وأعطاني منيرة بالية عنده وأراني الطريق . فذهبت ، وخفت ان يبدو لهم فيدركوني ، فدخلت غيضة قصب واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس . ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرانيها الشاب . فأفضت بي إلى ماء ، فشربت منه وسرت الى ثلث الليل ، فوصلت إلى جبل فنمت تحته .

فلما أصبحت سلكت الطريق ، فوصلت ضحا إلى جبل من الصخر عال ، فيه شجر أم غيلا والسدر ، فكنت أجني النبق فآكله ، حتى أثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن .

ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدرعة قطنا ، وبها أشجار الخروع . وهنالك بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة ، لها درج ينزل عليها إلى ورد الماء . وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس . ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لاماء بها . وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد .

ولما وصلنا إلى البئر شربت منها ووجدت عليها شيئا من عساليج الخردل ، قد سقطت ممن غسلها . فأكلت منها وادخرت باقيها ، ونمت تحت شجرة خروع . فبينما أنا كذلك اذ ورد نحو أربعين فارسا مدرعين ، فدخل بعضهم المزرعة ثم ذهبوا . وطمس الله أبصارهم دوني . ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا الى البئر . وأتى احدهم الى شجرة ازاء الشجرة التي كنت تحتها ، فلم يشعر بي .

ودخلت اذ ذاك في مزرعة القطن وبقيت بها بقية نهاري . وأقاموا على البئر يغسلون ثيابهم ويلعبون . فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا ، فخرجت حينئذ واتبعت اثر الخيل والليل مقمر ، وسرت حتى انتهيت الى بئر أخرى عليها قبة . فنزلت اليها وشربت من مائها وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي .

ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير . فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان في ذلك العشب ، أظنه حية ، فلا أباليها لما بي من الجهد .

فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي الى قرية خربة ، وسلكت سواها فكانت كمثلها ، وأقمت كذلك أياما . وفي بعضها وصلت الى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وفي داخلها شبه بيت ، وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره . فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني الى العمارة .

ثم إني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ، ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل ، فاذا تلك الطريق تفضي الى قرى الكفار ، فاتبعت طريقا أخرى ، فانفضت بي إلى قرية خربة ، ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما ، وأقمت تحت أشجار هنالك .

فلما كان الليل دخلت القرية ، ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة

يصنعونها لاختزان الزرع ، وفي أسفلها نقب يسع الرجل . فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا بالتبن ، وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت . وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل ، وأظنه كان يخاف ، فاجتمعنا خائفين ، وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت وهو يوم السبت .

وفي السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة ، وفيها حوض ماء ، ومنابت خضر ، فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني ، فوجدت حول بئر بها أوراق فجل فأكلتها . وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة ، فدعاني طليعتهم فلم أجبه ، وقعدت على الأرض . فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به ، فلم ألتفت إليه لعظم مابي من الجهد . ففتشني فلم يجد عندي شيئا ، فأخذ القميص الذي كنت أعطيته الشيخ الموكل بي كمية .

ولما كان في اليوم الثامن ، اشتد بي العطش وعدمت الماء ، ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضا . وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر ، فيشربوا منه جميع السنة . فاتبعت طريقا ، فأفضت بي إلى بئر غير مطوية ، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض ، وليس فية آنية يستقى بها . فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل ، وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يروني ، فربطت خفي ، واستقيت به فلم يروني ، فاستقيت به ثانيا ، فانقطع الحبل ، ووقع الخف في البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت . ثم قطعته فربطت اعلاه على رجلي بحبل البئر ، وبخرق وجدتها هنالك .

فبينما أنا أربطها وأفكر في حالي ، اذ لاح لي شخص فنظرت اليه ، فاذا رجل أسود اللون بيده ابريق وعكاز ، وعلى كاهله جراب ، فقال لي : سلام عليكم .

فقلت له : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

فقال لي بالفارسية : جيكس ، ومعناه : من أنت ؟

فقلت له : انا تائه .

فقال لي : وانا كذلك .

ثم ربط ابريقه بحبل كان معه واستقى فأردت ان أشرب فقال لي : اصبر . ثم فتح جرابه ، فأخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل أرز ، فأكلت منه وشربت . وتوضأ وصلى ركعتين ، وتوضأت انا وصليت . وسألني عن اسمي فقلت : محمد ، وسألته عن

اسمه ، فقال لي : القلب الفارح .

فتفاءلت بذلك وسررت به . ثم قال لي . باسم الله ترافقني ؟

فقلت له : نعم

فمشيت معه قليلا ، ثم وجدت فتورا في أعضائي ، ولم استطع النهوض ، فقعدت .

فقال : ما شأنك ؟

فقلت له : كنت قادرا على المشي قبل أن ألقاك ، فلما لقيتك عجزت .

فقال : سبحان الله ، اركب فوق عنقي .

فقلت له : انك ضعيف ولا تستطيع ذلك .

فقال : يقويني الله ، لابد لك من ذلك .

فركبت على عنقه ، وقال لي : أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل .

فأكثرت من ذلك وغلبتني عيني . فلم أفق الا لسقوطي على الأرض ،فاستيقظت ولم ار للرجل أثرا ، واذا أنا في قرية عامرة ، فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود ، وحاكمها من المسلمين . فأعلموه بي ، فجاء الى فقلت له : ما اسم هذه القرية ؟

فقال لي : تاج بورة . وبينها وبين مدينة كول (حيث أصحابنا) فرسخان .

وحملني ذلك الحاكم الى بيته فأطعمني طعاما سخنا ، واغتسلت . وقال لي : عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجل عربي مصري ، من أهل المحلة التي بكول .

فقلت له : هاتهما ألبسهما ، إلى أن أصل الى المحلة .

فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي ، وكنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول ، فطال تعجبي من ذلك . وأفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه . فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي ، اذ قال لي : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي ، ويخلصك من شدة تقع فيها . وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه ، فقال : القلب الفارح ، فعلمت انه هو الذي أخبرني بلقائه ، وأنه من الأولياء ، ولم يحصل لي من صحبته الا المقدار الذي ذكر .

وأتيت تلك الليلة إلى اصحابي بكول معلما لهم بسلامتي ، فجاءوا الي بفرس وثياب واستبشروا بي ، ووجدت جواب السلطان قد وصلهم . وقد بعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار ، عوضا عن كافور المستشهد ، وأمرنا أن نتمادي في سفرنا . ووجدتهم أيضا قد

كتبوا للسلطان بما كان من أمري ، وتشاءموا بهذه السفرة ، لما جرى فيها على وعلى كافور ، وهم يريدون أن يرجعوا .

فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر ، أكدت عليهم ، وقوى عزمي . فقالوا : ألا ترى ما انفق في بداية هذه السفرة ؟ والسلطان يعذرك فلنرجع اليه ، او لنقم حتى يصل جوابه .

فقلت لهم : لا يمكن المقام ، وحيثما كنا أدركنا الجواب .

فرحنا من كول ونزلنا برج بورة ، وبه زاوية حسنة ، وفيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان ، لأنه لايلبس الا ثوبا من سرته الى أسفل ، وباقي جسده مكشوف . وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان ،القاطن بقرافة مصر ، نفع الله به .

وبين هنور وفاكنور (في الهند) وعند وصوله الى الجزيرة الصغرى خرج عليهم (الكفار) في أثنى عشر مركباً حربياً وقاتلوهم قتالاً شديداً وتغلبوا عليهم ، واخذوا جميع ما عندهم مما كان يدخره للشدائد وأخذوا الجواهر والياقيت التي أعطاها اياه ملك سيلان واخذوا ثيابه والزوادات التي كانت عنده مما أعطاه أياه الصالحون والأولياء ولم يتركوا له ساتراً خلا السراويل ، واخذوا ما كان لجميع الناس وأنزلوهم بالساحل[1].

ان الاشارات التي وقف عندها ابن بطوطة مسألة طبيعية في عصر اختلفت فيه المقاييس وهو يجوب أقطاراً مختلفة من حيث القيم والتقاليد وأنظمة الحكم وطبيعة الشعوب وأساليب الحياة وأنماط التعامل . وهي مواقف يتعرض لها كل سائح وتاجر ورحالّة وهو ما زخرت به كتبهم وعرضت له رحلاتهم واشارت اليه تآليفهم وهم يدخلون ارضاً غريبة ، وينزلون بين أقوام ابتعدت بهم المسافات واختلفت اطوارهم وتباينت طباعهم وافترقت أمزجتهم . وكان يجد في بعض المشاهد غرابة قياساً على طباع بلده وسلوك اخوته وابناء وطنه واشكالهم وتصرفاتهم وما يسمعه عن الآخرين من الأقوام .

---

(١) الرحلة/ ٣٥٦ ـ ٣٦٠ .

ففي مدينة ظفار يقول : ومن العجائب أن دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك في بلاد سواها[1] ويرى في (هرمز) من العجائب عند باب جامعها فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابيةوعيناها كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من أحدهما ويخرجون من الاخرى[2] وعند رحلة ركبه من تبوك يجدون السير ليلاً ونهاراً خوفا من هذه البرية ، وفي وسطها الوادي الاخضر كأنه وادي جهنم اعاذنا الله منها ، وأصاب الحجاج به في بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي تهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى الف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك في بعض صخر الوادي[3] وعندما يتحدث عن (الاحقاف) يذكر بساتينها وما يزرع فيها وخاصة الموز الكثير والكبير ويقول « وزنت بمحضري حبة منه فكان وزنها أثنتي عشرة أوقية ، وهو طيب الطعم ، شديد الحلاوة »[4].

وعند وصوله الى جزيرة الوزير علي يذكر النساء ذوات الثدي الواحد (كما يذكر) فيقول وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها ، ولها ابنتان احداهما كمثلها ذات ثدي واحد ، والأخرى ذات الثديين الا أن أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه فعجبت من شأنهن[5].

وتستأثر باهتمامه ظاهرة وجدها في بلاد الصين الى جانب الظواهر الأخرى التي ذكرها في رحلته الطويلة الى بلادهم فيقول : ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك اني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها إلا ورأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الاسواق[6] ثم يقول ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع اصحابي ونحن على زي العراقيين ، فلما عدت من القصر عشياً مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد الصقوه بالحائط ، فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تُخطىء شيئاً من شبهه . وذكر له أن السلطان يأمرهم بذلك . وانهم أتوا القصر وهم به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورهم ، وهم لم يشعروا بذلك[7]. ويعقب على ذلك فيقول : وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم وتنتهي حالتهم في ذلك الى أن

---

(١) الرحلة/ ١٧٣ .
(٢) الرحلة/ ١٨٢ .
(٣) الرحلة/ ٧٩ .
(٤) الرحلة/ ١٧٥ .
(٥) الرحلة/ ٤٠٤ .
(٦) الرحلة/ ٣٩٤ .
(٧) الرحلة/ ٤١٦ .

الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ[1].

ألا تستحق مثل هذه الظاهرة دراسة خاصة لطبيعة الفن وقدرة الرسامين ووسائل الرسم وسرعة التصوير ، ثم محاولة استعمال هذا الفن في تعقيب من يرتكب مخالفة أو يفعل ما يوجب فراره وهو ما تستعمله الدول في عصرنا الحاضر .

وتأتي أحاديثه احاديثه الخاصة والفردية في ثنايا الرحلة متباعدة وقل ما يقف عندها ففي مدينة أيا سلوق يذكر انه اشترى جارية رومية بكراً باربعين دينارا ذهبا[2] وعندما دخل الزاوية في مدينة (بولي) نزع ثيابه ولبس ثيابا سواها واصطلى بالنار[3] وفي خوارزم كانت عنده خيل كثيرة لكنه كان يفضل فرساً يؤثره ويربطه أمام الخيل وبقي عنده الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حاله[4] وتوفيت له بنت سنها دون السنة بعد شهر ونصف من مقدمه الى ارض الهند[5].

واتفق مع الوزير على تزوج بنته ، ولما تزوجها أكرهه الوزير على القضاء[6] ثم تزوج أخرى بنت وزير معظم عندهم[7] ثم تزوج زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين[8] وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبدالله تسكن في دارها وهي احبهن اليه[9] وعندما عزم على السفر طلق احدى الزوجات وكانت احداهن حاملاً فجعل لها آجلاً تسعة أشهر أن عاد فيها ، وإلا أمرها بيدها ، وحمل معه زوجته التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين ليسلمها لأبيها بجزيرة ملوك وزوجته الأولى التي بنتها اخت السلطانة[10]

ويحاول التعبير عن احساسه الديني في بعض الأحيان ويحمله هذا الاحساس على انكار ما يراه من الحسن بسببه فيقول : وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبه بل كان خاطره شديد التغيّر بسبب غلبة الكفار عليها فمتى خرج عن منزله رأى المناكير الكثيرة فيقلقه ذلك حتى كان يلازم المنزل فلا يخرج إلا لضرورة وكان اذا رأى المسلمين بها فكأنه لقي أهله وأقاربه[11]. وهو احساس لازمه في كثير من الأحوال وهو يصف حانة أو

---

(١) الرحلة/ ٤١٦ .
(٢) الرحلة/ ٤١٦ .
(٣) الرحلة/ ٢٠٢ .
(٤) الرحلة/ ٢٠٩ .
(٥) الرحلة/ ٢٤٢ .
(٦) الرحلة/ ٣٣٦ .
(٧) الرحلة/ ٣٩١ .
(٨) الرحلة/ ٣٩٢ .
(٩) الرحلة/ ٣٩٢ .
(١٠) الرحلة/ ٣٩٢ .
(١١) الرحلة/ ٣٩٢ .
(١١) الرحلة / ٤٢١

يعبر عن مسألة أو يعرض لأمر ، ولم يكن هذا الاحساس بعيداً عن حسه القومي وهو ينتقل من أرض الى أرض ويصاحب أقواماً وملاً ونحلاً مختلفة فأهل حمص عربٌ لهم فضل وكرم[1] وفي مدينة قيس يتحدث عن طائفة من عرب بني سفاف وهم الذين يغوصون على الجوهر[2] وسلطان دهلي شديد المحبة للعرب مؤثراً لهم معترفاً بفضائلهم[3] وصاحب السند خداوند زادة غياث الدين وقطب الملك لا يخاطب العربي الا بالتسويد تعظيما للعرب ، وأهل تلك البلاد يفعلون ذلك[4] .

ان أعباء الرحلة الطويلة التي فرضت عليه اعباءً ثقيلة وحملته على أن يختلط بأقوام يختلفون عنه لغة ودينا وقومية لم يحل دون التفاهم معه ، ولم تمنعه الفوارق التي صادفته على أن يظل بعيدا عن الأهداف الكثيرة التي دفعته الى اتمام الرحلة ، وكان هذا يدفعه الى أن يتخذ الوسيلة الكفيلة بتحقيق هذا الهدف فكان الترجمان هو الحل الحاسم والطريق الواصل . وقد وقف عند هذه الاشارة في بعض أحاديثه وخاصة عند دخوله ارض الغربة ووصوله الى اقوام يتعذر عليه نقل رغباته اليهم . فبعد وصوله الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزتيك في بلاد الروم وصل اليها السلطان ارخان بك وأقام بهذه المدينة نحو أربعين يوماً بسبب مرض فرس له ، فلما طال عليه المكث تركه وانصرف ومعه ثلاثة من أصحابه وجارية وغلامان وليس معهم من يُحسن اللسان التركي ويترجم عنهم ، وكان لهم ترجماناً فارقهم بهذه المدينة[5] . وعند دخوله على سلطان القسطنطينية وجد عنده ترجماناً[6] واثناء دخوله على سلطان ما وراء النهر كان عند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلاقة ، فقاموا اليه اربعتهم ودخلوا معه وصاحب العلاقة يترجم بينه وبين السلطان . وهو يسأله عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل[7] . وعندما دخل على سلطان مل جاوة قال : السلام على من اتبع الهدى ، فلم يفقهوا إلا لفظ السلام فرحب به وأمر أن يفرش له ثوب يقعد عليه فقال للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض[8] ولما كان بصين كلان سمع أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ، مع قوته التامة وانه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه فتوجه الى الغار فرأه على بابه وهو نحيف شديد الحمرة

---

(١) الرحلة/ ٤٣١ .
(٢) الرحلة/ ٥١ .
(٣) الرحلة/ ١٨٥ .
(٤) الرحلة/ ٣٠٩ .
(٥) الرحلة/ ٣٤٠ .
(٦) الرحلة/ ٢٠٦ .
(٧) الرحلة/ ٢٣٣ .
(٨) الرحلة/ ٢٤٧ .

عليه اثر العبادة ولا لحية له فسلم عليه فأمسك يده وشمها وقال للترجمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر[1]. انها اشارات الى مصاحبته للترجمان عند السفر ووجودهم عند ذوي الشأن والامراء وهو ما اعطى الرحلة هذه الأهمية لأن كثيرا من معلوماتها كانت تأتي عن هذا الطريق الذي يمهد للمعرفة سبلها وييسر للرحلة مسالكها ودروبها .

إن اختلاط المؤلف بالناس وعلاقته باوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية ولاسباب تتعلق به كان يقف عند بعض الاشارات التي تكشف عن الجانب الاقتصادي (النقود ، الاسعار ، الرواتب المكاييل والموازين) وكانت المقارنة تعقد في بعض الاحيان بين المدن التي يتحدث عنها وبين المغرب بلد المؤلف ، وفي بعض الاحايين بين المدن التي يزورها نفسها ، ارتفاعا وانخفاضا . . فدراهم تيزين وانطاكية فضة خالصة[2]. ودراهم مدينة ظفار من النحاس والقصدير ولا تنفق سواها[3]، واهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان ، واذا مزقت الكواغد في يد انسان حملها الى دار كدار السكة عنده ، فيأخذ عوضها جددا ويدفع تلك ولا يعطي على ذلك أجرة ولا سواها ، لأن الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان[4].

ويذكر بيع المقايضة في بعض جزر الهند فهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست[5]، ولا يخفي اعجابه أو استغرابه عندما يمر بمدينة ويجد الاسعار فيها رخيصة أو مرتفعة ، لأن الحديث عنها يرتبط بعصب حساس من عصب الرحلة وعامل من عوامل التأثير المباشر سلباً أو ايجاباً . فمدينة قصطمونية كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار فيقيم بها نحو أربعين يوما فكان يشتري طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ويشتري خبزاً بدرهمين فيكفي عشرة ويشتري حلواء العسل بدرهمين فتكفيهم جميعاً ويشتري حمل الحطب بدرهم واحد أوان البرد الشديد ويقول ولم أر في البلاد مدينة أرخص اسعارا منها[6] وينزل في بلاد (بنجالة) وهي بلاد متسعة كثيرة الأرز ويقول عنها ولم أر في الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة ، رأيت

---

(١) الرحلة/ ٤١٩ .
(٢) الرحلة/ ٥٥ .
(٣) الرحلة/ ١٧٣ .
(٤) الرحلة/ ٤١٥ .
(٥) الرحلة/ ٣٨٣ .
(٦) الرحلة / ٢١٠

الأرز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضي والدينار الفضي هو ثمانية دراهم والرطل الدهلي عشرون رطلاً مغربيا[1] ويعقد مقارنة طريفة بين الاوضاع المعاشية في مصر والمغرب فيذكر اللحم والسمن والعدس والحمص . وطريقة استعمالها واسعارها ويخلص الى أن بلاد المغرب أرخص البلاد اسعاراً وأكثرها خيرات واعظمها مرافق وفوائد[2] ويذكر أن الغلاء كان شديدا ببلاد الهند[3]، ويقدم قائمة دقيقة بالرواتب التي خصصت له ولاصحابه في بلاد الهند[4]، ويقدم صورة للنظم الادارية والطريقة التي يمنح بها العطاء والاجراءات الأصولية المتبعة واسماء الامراء الذين يكتبون، والدواوين التي تسهم في تسهيل مهمة العطاء[5].

وللمراتب والحرف موقع في حديثه عن المدن لأن السوق كانت لها صورة متميزة في أحاديثه لانه يذكر المدينة وشوارعها المتسعة أو المبلطة بالصفاح أو المبلطة بالقار وأسواقها البديعة الترتيب وأهل الصناعات التي يأخذون أماكنهم على حدة[6] وهذا منهج يكاد يلتزم به في كل اوصافه للمدن وأسواقها ، أما المدن التي تتوفر فيها المعادن فتأخذ جزءً من حديثه عنها فمدينة كمش مدينة عامرة يأتيها التجار من العراق والشام وبها معادن الفضة[7] والفخار الصيني الذي يصنع في مدينة الزيتون وهو من تراب جبال هنالك ، تقذفه النار كالفحم ويضيفون اليه حجارة عندهم ، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ، ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع تراباً ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ، ولا يزداد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام ، وهو ابدع انواع الفخار[8] ويتحدث عن التراب الذي يوقدونه مكان الفحم[9] .

ويقرر أن أهل الصين اعظم الأمم احكاماً للصناعات وأشدهم اتقاناً لها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه ، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتداراً عظيماً [10]

ومعدن النحاس بخارج (تكدا) يحفرون عنه الأرض ، ويأتون به الى البلد

---

(١) الرحلة/ ٢١٠ .
(٢) الرحلة/ ٤٠٥ .
(٣) الرحلة/ ٤٣١ .
(٤) الرحلة/ ٣٥٠ .
(٥) الرحلة/ ٣٤٠ وننظر ص ٣٣٦ ، ٣٤٢ .
(٦) الرحلة/ ٣٤٢ .
(٧) الرحلة/ ١٩٥ .
(٨) الرحلة/ ١٩٨ .
(٩) الرحلة/ ٤١٤ .
(١٠) الرحلة/ ٤١٥ .

فيسبكونه في دورهم ، فاذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً من طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ ، فتباع الغلاظ منها بحساب اربعمائة قضيب بمثقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة بمثقال وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح .

ويحملون الناس منها الى مدينة كوبر والى زغاي والى بلاد برنو[1] وللبريد ببلاد الهند نظامان أو صنفان ، فأما بريد الخيل فيسمونه الولاق وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة اربعة أميال . وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل ، الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها (الداوة) . والداوة هي ثلث ميل ، والميل عندهم يسمى الكروة . وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ، ويكون خارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم ، وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس . فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الاخرى ، وخرج يشتد بمنتهى جهده ، فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له ، فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومَرّ بأقصى جهده ، وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الاخرى ، ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه . وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان : يجعلونها في الاطباق ويشتدون بها حتى تصل الى السلطان[2] .

وفي (ملتان) قاعدة بلاد السند يبحث عن أمتعة المجتازين اشدّ البحث وتفتش رحالهم[3] وملك البريد يتولى الكتابة للسلطان باخبار المدينة وعمالتها وما يحدث بها ، ومن يصل اليها[4].

وللشؤون الزراعية وأوصافها أمر في الرحلة الطويلة[5] وللطوائف التي صادفها والعقائد التي اطلع عليها أمر اخر[6] أما الحيوانات والطيور فكان يفرد لبعضها حديثا

---

(١) الرحلة/ ٤٥٤ .
(٢) الرحلة/ ٢٦٢ - ٢٦٣ .
(٣) الرحلة/ ٢٦٨ .
(٤) الرحلة/ ٢٦٨ .
(٥) تنظر على سبيل المثال الصفحات/ ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ .
(٦) تنظر الصفحات/ ١٥٨ ، ١٦٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ .

ويذكر بعضها الآخر عرضاً[1].

والرحلة بعد كل هذه التفصيلات موسوعة علمية ضخمة ، فيها من المعلومات ما ينتفع بها كل باحث وفيها من الصور والأخبار ما تفي ثقافة كل متعلم تستهويه مغامرات الرحلات وتستأثر باهتمامه اخبار الشعوب والأقوام والملل وهي تستظل بانظمة متباينة وتحكمها اعداد من الحكام والسلاطين والأمراء ووجدت في بعض التقاليد التي ورثتها سبيلا للرضا وطريقا للقبول بما وجدوا عليه آباءهم . ومن هنا كانت رحلة لها أثرها التاريخي والاجتماعي بما قدمته من وثائق ، ولها بعدها الديني لأنها تناولت الأمور في اطار هذا التصور ، ولها اهميتها في عالم الرحلات لانها اوشكت ان تكون في عداد الرحلات الفريدة في غرابتها وجرأتها وما قدمته من ثمار علمية نافعة .

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE RECHERCHES ET D'ETUDES
مصر اتحاد الجامعات العربية

(١) تنظر الصفحات/ ١٧٨ ، ٢٢٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ .